الحكم دروزة — حامد الجبوري

ألف باء القومية العربية



منشورات الطليعة
1987

ألف بـــاء ... القومية العربية

الحكم دروزة

حامد الجبوري

1958

أولاً: روابط القومية العربية

القومية العربية هي الشخصيـة الجماعيـة المتميزة لتلك المجمـوعة من البشر التي يُـطلق عليها اسم العرب أو الأمة العربية. أو بكلمة: هي واقـع الحياة التـاريخي واللغوي والثقـافي الاجتماعي الشامل، (بما في هذا الواقع من وحدة في العـادات والتقاليـد والمصالـح والأهداف والتجارب والمعطيات)، مما يجعل من الأمة العربية وحـدة اجتماعيـة تاريخيـة متميزة تقـوم على تفاعل عدة روابط قومية مشتركة خاصة بها.

وينتمي إلى القومية العربية كل انسان يتكلّم اللغة العربية، وينتسب إلى التاريخ العربي أو يعتز به ويحياه، وينتمي إلى المجتمع العربي والوطن العربي الذي يمتد: من المحيط الأطلسي غرباً إلى الخليج العربي وجبال بشتكويه[1] (هضبة ايران) شرقاً، ومن جبال طوروس[2] والبحر الأبيض المتـوسط شمالاً، إلى اليمن وشـواطىء جنوب جـزيـرة العـرب عـلى المحيط الهـندي والصحراء الافريقية جنوبـاً. ويشمل الـوطن العربي بـالتالي: شبـه جزيـرة العرب والبحـرين وعربستان[3] والعراق وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين ومصر والسودان وليبيا وتونس والجـزائر ومراكش.

فالقومية العربية، إذن، هي، الشخصية الجماعية المتميـزة للأمـة العربيـة التي عاشت،

---

(١) الجبال التي تفصل حدود الوطن العربي الشرقية عن ايران، وتقع شرقي العراق.

(٢) الجبال التي تفصل حدود الوطن العربي الشمالية عن تركيا، وتقع شمال سوريا.

(٣) جزء الوطن العربي يُعتبر آخر حدوده الشرقية. وقد اغتصبته ايران، وهو تحت حكمها الآن.

وتعيش، وتتفاعل في هذا الوطن العربي على مر التاريخ، مما أوجد لديها روابط قومية خاصة بها تميزها من غيرها من قوميات العالم. فما هي هذه الروابط التي تقوم عليها القومية العربية؟

١ ـ وحدة اللغة

إن العرب في جميع أنحاء الوطن العربي يتكلمون لغة واحدة هي اللغة العربية. فنحن نجد عرب مصر يتكلّمون اللغة نفسها التي يتكلّمها عرب سوريا والأردن والعراق ولبنان، وهؤلاء يتكلمون لغة عرب الجزيرة العربية نفسها، وهؤلاء يتكلمون لغة عرب المغرب العربي نفسها، مما يخلق جواً عاماً من التفاهم والألفة بين جميع أفراد الأمة العربية. وأهمية اللغة الواحدة كرابطة هامة من روابط القومية العربية، ليست في كونها وسيلة للتفاهم والتخاطب فقط، بل في كونها أداة للتعبير عن الأفكار والآراء التي تدور في أذهان أفراد الأمة العربية، والأحاسيس والانفعالات والأهداف والتطلعات التي تجيش في نفوسهم، وفي كونها مجرى كبيراً للتفكير انصبّت به عادات الأمة العربية وتقاليدها ومثلها وصفاتها ومقاييسها وتراثها الكبير، مما يولّد اتجاهاً ثقافياً واحداً، وانسجاماً متقارباً في التفكير والمشاعر.

وللغة العربية مميزات عديدة تعكس إلى حد بعيد خصائص الشخصية القومية العربية. فموسيقية اللفظ وروعة الأسلوب ودقة التعبير وشمول المفردات والمعاني وغناها وسعة الخيال ـ هذه المميزات الظاهرة في اللغة العربية، التي تلمسها بوضوح في الشعر والنثر والقصص العربي، والتي تجمعت وتبلورت كأروع ما يكون في القرآن الكريم ـ كلها مميزات تعبّر عن العقلية العربية وطبيعتها.

والذي يجب أن ندركه، أن اللغة العربية كانت قد بلغت هذا الحد الكبير من التطور والاتقان قبل مجيء القرآن، فالقرآن لم يخلق اللغة العربية فإن كل كلمة فيه كانت معروفة ومفهومة عند العرب، وإنما جاء القرآن ببلاغته وإعجازه تعبيراً متقناً رائعاً عنها.

وقد بقيت اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي يتخاطب ويتفاهم بها العرب، والوسيلة الوحيدة التي يعبّرون بها عن آرائهم وأفكارهم وأحاسيسهم وانفعالاتهم وتجاربهم. منذ أن تكوّنت القومية العربية كواقع اجتماعي تاريخي للعرب في أعماق العصور، حتى يومنا هذا، كانت وسيلة حفظ التراث العربي والفكري والأدبي والفني والعلمي الضخم، ووسيلة تناقله عبر الأجيال. هذه اللغة الواحدة التي ورثتها الأمة العربية عن بعضها جيلاً بعد جيل، والتي نتكلم ونتفاهم ونعبّر بها نحن العرب اليوم، **مظهر أساسي من مظاهر قوميتنا العربية الواحدة، وركن هام في تثبيت هذه الوحدة القومية العربية وتعميقها في شخصيتنا.**

ونحن نجد اليوم أن ٩٣ بالمئة من سكان الوطن العربي يتكلمون ويعبّرون بلغة واحدة هي اللغة العربية، بينما نجد أن ٧ بالمئة فقط يتكلمون لغات متوزعة بين الأقليات[٤] في

---

(٤) تتوزع هذه الأقليات في غالبها على الشكل التالي: الأرمن في سوريا ولبنان، والأكراد في سوريا وشمال العراق، والشركس في الأردن، والزنوج في جنوب السودان والبربر في مراكش.

الوطن العربي كالأرمن والأكراد والشركس والزنوج توارثوها عبر الأجيال. وحتى الـ ٧ بالمئة من الذين يتكلمون لغات غير عربية، معظمهم يتكلم إلى جانبها اللغة العربية ويفهمها ويستعملها في معاملاته. أما اللهجات المحلية التي نجدها في أجزاء الوطن العربي، فلا تقلل أبداً من أهمية رابطة وحدة اللغة وأثرها في ايجاد الوحدة القومية. فهذه اللهجات هي:

أولاً: هي لهجات محلية، لا تقوم أبداً عائقاً أمام تعايش العرب وتفاهمهم وتمازجهم، فليس أسهل على أي عربي من أي جزء عربي ومهما كانت لهجته من أن يفهم لهجة جزء عربي آخر، وأن يتعودها في أيام معدودة، بل ويكون قادراً على استعمالها نفسها بعد فترة.

ثانياً: هذه اللهجات لا تحدد أبداً أقطاراً منفصلة، كأن نقول إن لمصر لهجتها الخاصة، وللأردن لهجته الخاصة، ولليمن لهجته الخاصة، بل كثيراً ما تتشابك وتتشابه هذه اللهجات بين أقطار بعيدة بعضها عن بعض أكثر مما تتشابه بين قطرين متجاورين. فنجد مثلاً، أن لهجة عرب الصعيد تشبه إلى حد بعيد لهجة عرب الأردن في اللفظ والنطق أكثر مما تشبه عرب الوجه البحري في مصر. ولهجة بعض الأنحاء في سوريا تشبه كثيراً لهجة العراق أو الأردن أكثر مما تشبه لهجة الأنحاء السورية الأخرى، بل لا نكون مغالين إذا قلنا إن هذه اللهجات تختلف أحياناً في الجزء العربي الواحد من مدينة إلى أخرى ومن قرية إلى أخرى، فهي لهجات محلية تختلف في القطر الواحد وتشبه أحياناً لهجة قطر آخر قد يبعد مئات ومئات من الأميال.

ثالثاً: إن هذا الاختلاف في اللهجات مقصور فقط على اللغة العامية. أما اللغة العربية الفصحى فهي واحدة في جميع أجزاء الوطن العربي، بل وتتحدد بالقواعد والشروط نفسها من حيث اللفظ والإعراب والتشكيل، مما يجعل مسألة اختلاف اللهجات أمراً ثانوياً مهملاً. هذا، اضافة إلى أن الاختلاف في اللهجات أمر موجود في جميع اللغات القومية الأخرى، كالاختلاف بين لهجة جنوب الولايات المتحدة وشمالها أو الأجزاء المختلفة في انكلترا أو فرنسا أو المانيا... الخ.

وقد تمثّلت اللغة العربية تمثّلاً تاماً جميع اللغات التي كانت تتكلمها الأقوام التي كانت تسكن الوطن العربي قبل الفتح العربي، (وكانت مزيجاً من اليونانية والفينيقية والآرامية واللاتينية والبربرية وغيرها...)، وأوجدت بذلك الوسط الطبيعي لتفاهم تلك الأقوام وتمازجها وتفاعلها، كما بقيت هي اللغة الوحيدة التي ظل يتكلمها العرب في جميع أجزاء الوطن العربي قروناً وقروناً، وهي إحدى اللغات المعدودة في العالم التي نستطيع أن نقرأ ونفهم بها اليوم ما كان يُكتب ويُقال في الجاهلية وبعدها على مرّ السنين. وقد فشلت جميع المحاولات التي بُذلت لمحوها، كالمحاولات التي قام بها الأتراك في عهد الاستعمار التركي، والمحاولات التي قامت وتقوم بها فرنسا في الجزائر حتى اليوم، وبقيت اللغة العربية وسيلة التفاهم والتخاطب والتعبير عند العرب، تصل ماضيهم بحاضرهم، بواسطتها يعرفون معرفة دقيقة أخبار الأمة العربية وأحوالها وتاريخها في الجاهلية وفي الاسلام وفي العصور الوسطى والحديثة، وبها يقرأون شعر المتنبي وأبي العلاء، ومؤلفات العلماء العرب، وكتابات ابن

خلدون وغيرها، وبها يحس ويفهم القارىء العربي في الأردن أو سوريا أو العراق آلام الشاعر المصري وآماله وأهدافه، وبها يتحسس القارىء العربي في جزيرة العرب أو مصر آراء وأفكار الكاتب العربي في المغرب، وبها يتفاعل العرب ويتمازجون ويعبرون، مما ينشىء رابطة مادية ومعنوية متينة بين أفراد القومية العربية تؤكد وحدتهم، وتشعر أنهم يكوّنون وحدة اجتماعية متميزة.

٢ ـ وحدة التاريخ

يقول البعض إن التاريخ الواحد يصنع القومية الواحدة.

وفي هذا القول كثير من الصحة إذا اعتبرنا التاريخ تلك السلسلة الطويلة من التفاعلات الكثيرة المتشابكة التي حدثت في الجماعات البشرية على مر الأجيال، وأعطتها اللغة والثقافة والعادات والتقاليد الواحدة، وولدت لديها المصالح والأهداف الواحدة، والشعور القومي الواحد.

وقد تميّز التاريخ العربي الذي مرّ على الأمة العربية، بثلاث ميزات هامة جعلته عاملاً رئيسياً في ايجاد القومية العربية الواحدة والشخصية القومية العربية المتميزة. هذه الميزات:

١ ـ إن التاريخ العربي هو وحدة تاريخية سياسية مترابطة.

٢ ـ إن التاريخ العربي هو وحدة اجتماعية.

٣ ـ إن التاريخ العربي هو سلسلة متصلة الحلقات هيأت كل حلقة فيها لمجيء الحلقات التالية.

فالتاريخ العربي كان وحدة تاريخية شاملة، بمعنى أن الأمة العربية عاشت تاريخاً واحداً، وخضعت لظروف تاريخية كانت واحدة في أغلب الأحيان، وتأثرت بها القومية العربية من حيث أسبابها ونتائجها كوحدة في أغلب الأحيان أيضاً. ولا شك أن التجزئة قد تسرّبت إلى هذه الوحدة في بعض فترات في التاريخ، ورأينا الوحدة السياسية تفقد في بعض الأحيان، ولكن الوحدة كانت متوفرة دوماً من حيث أسس وروابط الوجود القومي العربي. ومن حيث وحدة الظروف والأحداث والنتائج التي مرّت على الأمة العربية.

لنحاول أن نعود إلى الماضي، ونستعرض استعراضاً مترابطاً التاريخ الطويل الذي مرّت به هذه المجموعة العربية في الوطن العربي، منذ أن كانت في طور التشكيل والتكوّن القومي غير المتميز تماماً، حتى تميّزت شخصيتها القومية العربية تمام التميز والوضوح.

حين قام حكم الفراعنة في مصر، لم يقتصر نطاق هذا الحكم على الأرض المصرية فقط، ولم يتوقف عند أطراف جزيرة سيناء، بل امتد الفراعنة في الأرض العربية خارج مصر حتى وصل سلطانهم إلى أرض ما بين النهرين في العراق.

وحين انهار حكم السومريين قبل ذلك في ما بين النهرين (العراق)، انهار على يد

القبائل الساميّة التي جاءت من جزيرة العرب، واستوطنت ما بين النهرين بعد السومريين.

وحين خرج البابليون والكلدانيون والأشوريون من جزيرة العرب واستوطنوا ما بين النهرين في العراق، لم ينعزلوا أبداً في العراق، بل رأيناهم يمتدون حتى بلغوا أرض الفراعنة في وادي النيل، وأسسوا دولاً شملت قسماً كبيراً من الوطن العربي في كثير من الأحيان.

وخرج الفينيقيون من جزيرة العرب، واستوطنوا ساحل البحر الأبيض المتوسط (لبنان بصورة خاصة)، ثم انطلقوا في الأرض العربية إلى المغرب العربي حيث أسسوا قرطاجنة قرب تونس اليوم.

فهذه الأقوام التي كانت تسكن الوطن العربي قبل الفتح الاسلامي، والتي جاء معظمها من جزيرة العرب، لم تكن معزولة تماماً بعضها عن بعض كما يظن الكثيرون، بل كانت تجاور بعضها البعض وتمتد إلى حدود بعضها البعض.

ومضى التاريخ . . .

وانطلق العرب في الجزيرة العربية يحملون رسالة الاسلام، ولم ينعزلوا أبداً في حدود الجزيرة العربية، بل حذوا حذو القبائل التي هاجرت من تلك الجزيرة في السابق، فامتدوا حتى شملوا كل الوطن العربي بحدوده الحالية، وتمّت في ذلك العهد الوحدة العربية التاريخية، وعاش العرب في الجزيرة العربية، والهلال الخصيب ووادي النيل والمغرب العربي دولة واحدة، توجههم جبهة عربية واحدة، ويخضعون لأنظمة واحدة ويتبعون مقاييس وقيماً واحدة، واستمرت هذه الوحدة منذ عهد الخلفاء الراشدين في صدر الإسلام إلى عهد الأمويين، ومن ثم العباسيين من بعدهم.

ولما ضعفت الدولة العباسية، وأخذت تظهر في أواخر أيامها دول عربية انفصالية في أجزاء مختلفة من الوطن العربي، بدأت التجزئة تتسرب إلى الوحدة العربية، ولكن هذه التجزئة لم تكن شاملة بالصورة التي تقترن فيها هذه الفترة من التاريخ العربي في أذهان الكثيرين.

فإن الدول الانفصالية التي قامت، لم تكن دوماً تنعزل في حدود الجزء الذي قامت عليه، كما لم يكن لكل منها تاريخ خاص منفصل، وبقيت الوحدة هي الطابع العام من حيث أسس الوجود القومي العربي أولاً، ومن حيث وحدة الظروف والأحداث والنتائج التي مرّت على الأمة العربية، ثانياً.

فنجد، مثلاً، أن هذه الدول الانفصالية رغم تعددها كانت تخضع (ولو اسمياً)، لدولة واحدة وخليفة واحد، كما نجد أن هذه الدول لم تنعزل أبداً في حدود الأرض العربية التي قامت فيها، بل كانت تعمل دوماً على مدّ نفوذها إلى الأجزاء الأخرى من الوطن العربي، كما اختلط تاريخها بعضها مع بعض اختلاطاً كبيراً.

الفاطميون، مثلاً، الذين جاءوا من المغرب العربي، وأقاموا حكمهم في مصر، لم

ينعزلوا في أرض مصر، بل امتدوا في الأرض العربية حتى شملوا المغرب العربي ومصر وسوريا وقسماً كبيراً من جزيرة العرب.

والطولونيون والإخشيديون والأيوبيون الذين أقاموا حكمهم في مصر، أيضاً لم ينعزلوا في أرض مصر، ولم يتوقفوا أبداً عند أطراف جزيرة سيناء، بل امتدوا حتى شملوا قسماً كبيراً من سوريا إلى جانب مصر.

وقام المماليك في مصر، ولم ينعزلوا في أرض مصر، بل أسسوا دولة امتدت حتى شملت مصر وسوريا ولبنان وفلسطين وقسماً كبيراً من جزيرة العرب.

وبعد المماليك، جاء الاستعمار التركي، ولم ينحصر في جزء دون آخر، بل امتد حتى شمل كل الوطن العربي من أقصاه إلى أقصاه كوحدة[٥].

وفي هذه الأثناء قام محمد علي الكبير وابنه ابراهيم، وشمل حكمهما مصر والسودان، ولكنهما لم يتوقفا أبداً عند حدود هذين القطرين، بل وجدناهما يرسمان كل خططهما ويتخذان كل استعداداتهما على أساس اقامة دولة واحدة تشمل مصر والسودان وسوريا ولبنان، والعراق وجزيرة العرب. ويقول عبد الرحمن الرافعي في هذا الصدد: «من الراجح الذي تؤيده الحوادث أن مشروع محمد علي كان يتناول انشاء دولة عربية مستقلة في مصر تضم إليها البلاد العربية في آسيا وافريقيا»[٦]. كما روى بعض الذين اتصلوا بابراهيم باشا: «إن ابراهيم باشا يجاهر علناً بأنه ينوي احياء القومية العربية واعطاء العرب حقوقهم وإسناد المناصب إليهم... ». وتتجلى فكرته هذه في منشوراته ومخاطباته لجنوده في الحرب السورية الأخيرة، فإنه لا يفتأ يذكّرهم بمفاخر الأمة العربية ومجدها الخالد، وهو في صلاته مع أهل البلاد يستخدم اللغة العربية، ويعدّ نفسه عربياً، ولذلك لا ينفك يطعن في الأتراك، وقد لاحظ عليه أحد جنوده وخاطبه بتلك الحرية التي كان يشجع رجاله عليها وسأله كيف يطعن الأتراك وهو منهم؟ فأجابه ابراهيم باشا على الفور: أنا لست تركياً، فإني جئت مصر صبياً، ومنذ ذلك الحين قد مصّرتني شمسها وغيّرت من دمي وجعلته دماً عربياً[٧].

ولا يهمنا هنا أن نناقش مدى اخلاص ابراهيم باشا في ايجاد دولة عربية واحدة، أو مدى صدق شعوره العربي، ولكننا أوردناه كدليل على وحدة الظروف والأحداث التي عاشتها القومية العربية.

ولما اضمحل الاستعمار التركي بعد الحرب العالمية الأولى[٨]، وجاء الاستعمار البريطاني والفرنسي، امتد هذا الاستعمار حتى شمل كل الوطن العربي كوحدة من جزيرة العرب

---

(٥) كانت درجة نفوذ الاستعمار التركي تختلف من جزء إلى آخر في الوطن العربي، فقد كانت ضعيفة في المغرب وبعض أجزاء جزيرة العرب وقوية في أجزاء أخرى.

(٦) عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية.

(٧) سامي الكيالي، الفكر العربي بين ماضيه وحاضره.

(٨) وكان قد اضمحل قبل ذلك في المغرب العربي ومصر.

والهلال الخصيب، إلى وادي النيل والمغرب العربي.

وهكذا نرى أن القومية العربية قد خضعت لظروف تاريخية واحدة رغم تعدّد الدول والحكومات التي قامت في أجزاء الوطن العربي، عربية كانت أم أجنبية، فلم تكن هذه الدول كما رأينا تنحصر في الجزء الذي قامت فيه بل كانت تشمل دوماً في دولة واحدة عدة أجزاء عربية، كما لم تكن هذه الظروف التاريخية تختص بجزء عربي دون آخر أو تختلف من جزء إلى آخر، بل كانت تاريخاً واحداً.

والتاريخ العربي هو سلسلة متصلة الحلقات، بمعنى أن التاريخ العربي بكل فتراته وأدواره، وبكل هذه الدول الكثيرة والحكومات المتعددة (العربية والأجنبية) التي ظهرت فيه، لم يكن سلسلة متقطعة منفصلة بعضها عن بعض، ولا أدواراً غريبة عن بعضها لا علاقة لكل منها بالآخر، بل كان سلسلة من الحلقات تهيّء كل منها للحلقة التي تليها.

فالوطن العربي كان الساحة الطبيعية التي تتفاعل فيها قبائل جزيرة العرب في دور ما قبل الاسلام، مما مهّد لذوبان هذه الأقوام ذوباناً تاماً في البوتقة العربية بعد الفتح العربي، كما مهّدت حضارات هذه الأقوام الرائعة لقيام الرسالة المحمدية والحضارة العربية.

والاسلام الذي جاء به محمد العربي إلى جزيرة العرب لم يكن منقطع الصلة بالبيئة العربية في العصر الجاهلي، بل إننا لا نستطيع أن نفهم القرآن فهماً صحيحاً، بآياته وأحكامه وتشريعاته، إلّا إذا فهمنا أولاً حياة العرب في الجاهلية التي سبقت الإسلام، وما كان يسود تلك البيئة من عادات وتقاليد وقيم ومقاييس. لا أحد يستطيع أن ينكر أن الاسلام كان قفزة جبارة بل ثورة شاملة، ولكنها لم تكن قفزة في الهواء بل انطلقت من الأرض، ولم تكن ثورة بلا هدف، بل جاءت تستبدل مجتمعاً معيّناً بآخر، وقيماً ومقاييس معينة بأخرى.

وكما اننا لا نستطيع أن نفهم الاسلام نفسه، وعصر صدر الاسلام إلّا بفهم المجتمع الجاهلي، فكذلك لا نستطيع أن نفهم العصر الأموي وخلافة معاوية واستقلاله وظهور الخوارج وغيرها كثير، إلا إذا فهمنا أولاً عصر صدر الإسلام، وحكم عثمان والخلاف بين عثمان وعلي وغيرها من الأمور التي لم يقتصر أثرها على العصر الأموي، بل مهدت لقيام العصر العباسي في ما بعد، بحيث جاء يتصل اتصالاً وثيقاً بعصر صدر الاسلام والعصر الأموي.

وقيام الحكم العربي في الأندلس يتصل كذلك اتصالاً وثيقاً بالعصر العباسي، فمن المعروف أن هذا الحكم قام هناك إثر انهيار الحكم الأموي على يد العباسيين وهروب بعض الأمويين تحت ضغطهم إلى الأندلس.

وأكثر من هذا، نحن لا نستطيع أن نفهم أسباب انهيار الحكم العباسي إلّا بإرجاعه إلى العصر الأموي وعصر صدر الاسلام، فمن المعروف أيضاً أن الفرس الذين تغلغلوا في الدولة العباسية واستولوا على الحكم، ما كانوا أبداً يستطيعون القيام بهذا الدور، لولا أنهم هم الذين ساعدوا العباسيين على تقويض الحكم الأموي باستغلالهم الخلاف بينهم وبين الأمويين

الذي يرجع بدوره إلى الخلاف القديم بين عثمان وعلي في صدر الإسلام.

وإذا استمررنا بعد ذلك، فإن ضعف الدولة العباسية، ومن ثم انهيارها على يد المغول، هما اللذان مهّدا لقيام الدول العربية الانفصالية التي رأيناها تظهر في الوطن العربي، ومن ثم مهّد هذا الوضع الذي كانت تعيش فيه الأمة العربية في ظل عدة دول وحكومات، لغزو الأتراك العثمانيين وقيام الاستعمار التركي البشع الطويل في الوطن العربي، كما مهّد تفكك الامبراطورية العثمانية في ما بعد وحالة الضعف والفساد التي خلقتها في المجتمع العربي لقيام الاستعمار البريطاني والفرنسي في الوطن العربي.

وهذان الاستعماران، العثماني والغربي، وما زرعاه في جسم المجتمع العربي من ضعف وفساد وتجزئة، هما اللذان مهّدا لقيام الثورات العربية التي قامت ولا تزال في الوطن العربي.

ثورات عرابي ومصطفى كامل وسعد زغلول...

ثورات الهلال الخصيب وجزيرة العرب ضد تركيا...

ثورة عرب المغرب وسوريا ولبنان ضد فرنسا...

ثورة عرب فلسطين والأردن والعراق وجزيرة العرب ضد بريطانيا.

ثورة مصر في ٢٣ تموز/ يوليو ضد بريطانيا والأوضاع الفاسدة التي رافقت الملكية في عهد فاروق.

من هذا العرض السريع، نرى أن التاريخ العربي لم يكن أدواراً منفصلة وغريبة عن بعضها البعض. بل كان حلقات في سلسلة واحدة، هيأت كل منها لمجيء الثانية. فلا نستطيع أن نفهم صدر الاسلام إلاّ بالرجوع إلى الجاهلية، والعصر الأموي إلاّ بالرجوع إلى صدر الاسلام، والعصر العباسي إلاّ بالرجوع إلى العصر الأموي، والدول المنفصلة إلاّ بالرجوع إلى العصر العباسي، ومجيء الاستعمار التركي والغربي إلاّ بدراسة حالة العرب قبل مجيئهم، والثورات العربية في المغرب أو مصر أو الهلال الخصيب أو جزيرة العرب، إلاّ بدراسة الأوضاع التي سادت وأدت إلى هذه الثورات وعلى هذا الأساس أيضاً ستكون الثورات العربية التي ستقوم في المستقبل امتداداً لأوضاع سائدة.
سلسلة واحدة تمهد كل حلقة للتالية.

والتاريخ العربي وحدة اجتماعية

إن مفهوم التاريخ يقترن أكثر ما يقترن في أذهان الناس، الدول والحكومات والملوك، أي الجانب السياسي من الواقع القومي التاريخي، ولكن الحكومات والملوك ليست هي كل التاريخ، فهناك حياة شعوب هذه الحكومات والملوك، كما أن الجانب السياسي من التاريخ ليس هو كل التاريخ، بل هناك الجانب الاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي... ونحن حين نبحث التاريخ العربي يجب أن نبحثه من مختلف جوانب الواقع القومي للعرب.

فلم يكن التاريخ العربي واحداً من حيث الظروف والأحداث والأوضاع السياسية التي مرّت على العرب فقط، بل عاشت الأمة العربية في ظل ظروف قومية حياتية كانت واحدة في أغلب الأحيان، وشملت مختلف أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والثقافية، وتأثرت بها الأمة العربية كوحدة وبكل مجموعها في أغلب الأحيان أيضاً.

فحين كان العرب يعيشون في الجزيرة العربية قبل الإسلام كانوا يتّبعون عادات وتقاليد واحدة، ويلتزمون مقاييس وقيماً أخلاقية واحدة ويتداولون ثقافة واحدة، وكانت هذه العادات والتقاليد والثقافة والقيم والمقاييس تنعكس فيهم كوحدة، ويتأثرون بها كوحدة.

ولما جاء الاسلام، وقامت النهضة العربية الجبّارة في ما بعد، امتدت هذه النهضة حتى شملت كل الأمة العربية، وكل مرافق الحياة العربية، وكل جوانب الواقع القومي العربي، وتجسّدت هذه الوحدة في الظروف الحياتية كأبرز ما يكون في الفترة الممتدة ما بين صدر الإسلام حتى العصر العباسي، وحدة في النظم والادارة والتشريع والثقافة وغيرها.

ولما انهارت الدولة العباسية وبدأت عصور الانحطاط، امتد هذا الانحطاط حتى شمل كل الأمة العربية، وكل مرافق الحياة العربية، وكل جوانب الواقع القومي العربي.

ولما جاء الاستعمار التركي مد سيطرته على كل الوطن العربي، وتأثرت به الأمة العربية بكل مجموعها وكوحدة، فرأينا الاقطاع يسود مصر كما يسود سوريا وفلسطين ولبنان والعراق، ورأينا نظام الالتزام في جباية الضرائب يتبع في مصر كما يتّبع في بلاد الشام وباقي أجزاء الوطن، وخيّم الجهل والظلم الاجتماعي والتأخر على الأمة العربية كمجموع، لا فرق بين مصري أو سوري أو عراقي. وأصاب الجمود الفكر العربي في كل أجزاء الوطن العربي.

ولما جاء الاستعمار البريطاني والفرنسي، امتد حتى شمل كل الوطن العربي وتأثّرت به كل الأمة العربية كوحدة أيضاً، ورأينا الاستعمار ينظر إلى الوطن العربي كوحدة لا تتجزأ... فحين احتلت فرنسا الجزائر سارعت في ما بعد إلى احتلال تونس ومراكش لضمان سيطرتها على الجزائر، ثم عملت على احتلال سوريا ولبنان في المشرق العربي لتضمن سيطرتها على المغرب العربي... ولما احتلت بريطانيا عدن عملت على مد سيطرتها على كل الشاطىء الجنوبي لجزيرة العرب لتضمن مراكزها الاستراتيجية الحساسة على الأطراف، كما بدأت تتحين الفرص لاحتلال العراق، لتضمن سيطرتها على جنوب جزيرة العرب. ولما احتلت بريطانيا مصر، بدأت تعمل لاحتلال فلسطين لضمان سيطرتها على مصر وقناة السويس. ولما قامت بريطانيا وفرنسا واسرائيل بالعدوان الثلاثي الأخير على مصر، كان هذا العدوان يستهدف، لو نجح، اعادة السيطرة الاستعمارية إلى كل الوطن العربي، كما كان من أسبابه الرئيسية ايقاف التيار القومي العربي الذي بدأ يتجه نحو المغرب العربي، ومنع اتحاد سوريا ومصر.

إن الاستعمار ينظر إلى الأمة العربية كوحدة لا تتجزأ...

وقد تأثرت الأمة العربية بهذا الاستعمار بكل مجموعها، وانعكست فيها آثاره كوحدة،

سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الأخلاقية أو الثقافية لا فرق بين أي جزء عربي وآخر.

إن التاريخ العربي استناداً إلى النقاط السابقة، وباعتباره وحدة تاريخية سياسية، وسلسلة حلقات متصلة ووحدة تاريخية اجتماعية... التاريخ العربي بكل ما فيه، بنكباته وانتصاراته وحروبه وثوراته وأبطاله وشخصياته ومواقفه وأوضاعه وتجاربه وبما خلّفه ويخلّفه هذا التاريخ في الأمة العربية من صفات وخصائص ودوافع وآمال، وبما يبعثه فيها من مشاعر وذكريات، وما ينميه من عادات وتقاليد ومقاييس وثقافة وخبرة، التاريخ العربي بكل هذه الأمور مجتمعة هو عامل هام جداً في ايجاد الشخصية القومية العربية المتميزة وبلورتها وتثبيت وحدتها. فإذا ما نظرنا الآن إلى القومية العربية واستعرضنا في ذهننا تاريخها الطويل، نجد أنها قد عاشت في الوطن العربي مئات ومئات من القرون تتفاعل مع أرضها وأوضاعها ولغتها وثقافتها وجيرانها، تجابه في أغلب الحالات المواقف نفسها، وتخضع للظروف نفسها، وتلاقي المصير نفسه، مما ربطها بوحدة لا تنفصم، وأوجد لديها شخصية خاصة وتجارب خاصة، وذكريات وارتباطات خاصة، حيث أصبح العربي في أي جزء من الوطن العربي يتغنّى بعدل عمر وشجاعة خالد، وبطولات القادسية واليرموك وحطين، وأصبح العربي في سوريا والعراق واليمن ومصر كما في المغرب العربي، يتغنى ببطولات عبد القادر الجزائري في ثوراته ضد فرنسا، وعبد الكريم الخطابي في ثوراته ضد اسبانيا، وعمر المختار في ثوراته ضد ايطاليا، وأهل رشيد ضد بريطانيا، وأحمد عرابي والتل الكبير. وتثير حادثة دنشواي في نفسه آلاف الأحاسيس، والصور، كما تثير مذبحة النصر في الجزائر آلاف الأحاسيس والصور، وتنحفر في نفسه وقلبه معركة بور سعيد وبطولاتها، كما تنحفر ثورة الجزائر وروعة نضالها.

ونحن العرب، إذ نذكر هذا التاريخ، لا نذكره لنتغنّى به فقط، ولا نتغنّى به لنعيش على ذكرياته الماضية، بل نذكره لندرك روابط الوحدة القوية التي تشدّنا بعضنا إلى بعض، مصريين كنا أم سوريين أم حجازيين أم مغربيين شداً متيناً نسجت خيوطه أجيال التاريخ العربي، ونذكره لنستفيد من خبرته ونكون أقدر على حل مشاكلنا، ولندرك أن هذا التاريخ قد حمّلنا رسالة كبيرة خيّرة لبناء الإنسانية.

٣ ـ وحدة الأرض

إن الطبيعة الجغرافية للوطن العربي، كانت عاملاً هاماً في تكوين شخصية القومية العربية. فالمناخ والتربة وكمية الأمطار وخصب الأرض أو جدبها، كلها أمور تؤثر في طبيعة السكان ومزاجهم وعقليتهم ونوع معيشتهم وعاداتهم.

والوطن العربي هو وحدة جغرافية، مما جعل تأثير البيئة ينعكس في الأمة العربية كوحدة أيضاً، ويطبعها بطابع واحد تقريباً.

«فهذه الأرض التي تمتد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، قطعة تكاد تأخذ شكل المستطيل المتوازي الأضلاع لا يفصل بعضها عن بعض فاصل طبيعي كبير. قطعة لها جغرافية واحدة،

تتمثل في كل قطر من أقطارها المجزأة، وتتلخص باحتوائها جميعاً على صحراء وجبل وسهل ترويه الأنهار، هذه الصورة على رغم اختلاف ألوانها، وصورها تتعدّد في جميع أنحاء هذا الوطن وفي كل أصقاعه. ففي المغرب جبل وصحراء وسهول ترويها الأنهار، وكذلك الأمر في الشام وفي مصر والعراق والسودان والجزيرة العربية. ولذلك أدّى تشابه الطبيعة هذا، إلى تشابه تقسيم السكان في كل منها إلى بدو وحضر في كل أنحاء الوطن العربي.

والذي لا شك فيه أن هذه الطبيعة، طبيعة قائمة وحدها، لا تشابه بينها وبين أي قطر يجاورها، فأنت إذا دخلت تركيا انعدمت الصحراء، وإذا جست خلال أواسط افريقيا التي تحدّنا جنوباً تغيّرت الطبيعة عليك تغيّراً تاماً. وهذه القطعة من جغرافية العالم هي الوحيدة، على الأقل في هذه الأنحاء، التي تردّد باستمرار هذه المناظر الثلاثة المتتابعة: الصحراء والجبل والسهل الذي ترويه الأنهار والأمطار. جغرافية واحدة قد تختلف انحاؤها في بعض التفاصيل، كما يمكن أن تختلف أنحاء أي وطن في العالم في بعض التفاصيل، بل كما يختلف سهل البقاع مثلاً عن الجبل في لبنان، أو كما يختلف صعيد مصر عن وجهها البحري، أو كما يختلف شمال العراق الجبلي البارد الجو عن جنوبه السهلي. أما الصورة العامة للوطن العربي، فهي لا تعاد في كل أنحائه فحسب، بل هي لا تعاد في أقطار الشرق الأوسط والأدنى إلاّ في الوطن العربي»[٩].

فالوطن العربي، إذن، لا ينفصل أبداً بعضه عن بعض بحواجز طبيعية تحدد أقطاراً مختلفة لكل منها جغرافيته الخاصة به. وحتى الصحارى المنتشرة في أنحاء الوطن العربي، لم تقف يوماً حائلاً أمام تفاعل العرب، ويظهر ذلك جليّاً من الهجرات المتتابعة التي كانت تخرج من جزيرة العرب، وتنتشر في مختلف أجزاء الوطن، في العراق والشام ووادي النيل والمغرب، منذ عهد ما قبل الإسلام حتى القرون الأخيرة.

وإذا تتبّعنا هذه الناحية أكثر من ذلك، نجد أن الوطن العربي، اضافة إلى النقاط السابقة، يشكّل وحدة جيولوجية شبه تامة.

«يقرر علماء الطبيعة ـ بناء على نتائج الأبحاث الجيولوجية ـ أن مصر تؤلف «وحدة طبيعية» مع الجزيرة العربية وسوريا ووادي الرافدين. إذ من المعلوم أن وادي النيل موازٍ للبحر الأحمر. وهذا البحر ما هو إلاّ امتداد عريض وعميق لوادي الشريعة فوادي العاصي الذي يمتد على طول بر الشام، موازياً للبحر الأبيض المتوسط، كما أن خليج البصرة بمثابة امتداد عريض وعميق لوادي الرافدين، وهذا الوادي ـ مع امتداده المذكور ـ موازٍ ـ تقريباً ـ للواديين المذكورين آنفاً.

إن مراجعة المؤلّفات الجغرافية والجيولوجية... تكفي للتأكّد من أن افريقيا الشمالية بوجه عام، والبلاد المصرية بوجه خاص، ترتبط بالجزيرة العربية وبالهلال الخصيب الذي يعلو هذه الجزيرة، أكثر مما تنتسب إلى سائر أقطار القارة الافريقية الآسيوية»[١٠].

وفي هذا الوطن العربي الذي يقع على معابر الكرة الأرضية، قامت أولى الحضارات الانسانية التي عرفها العالم وأرقاها، في جنوب جزيرة العرب، وأرض ما بين النهرين، وشواطىء البحر الأبيض المتوسط وضفاف النيل، وبقيت تغذي العالم بفيض انتاجها

---

(٩) منيف الرزاز، معالم الحياة العربية الجديدة.

(١٠) ساطع الحصري [أبو خلدون]، العروبة أولاً.

الحضاري الفكري والعلمي والأدبي والفني منذ آلاف السنين قبل الميلاد حتى القرون الوسطى المتأخرة.

ونحن إذ نذكر أثر البيئة الطبيعية للوطن العربي ووحدتها في تكوين الشخصية القومية العربية الواحدة، لا بد أن نذكر أيضاً، أن أثر العامل الجغرافي في تكوين القوميات قد بدأ يخفّ كثيراً في الوقت الحاضر. وانقضى العهد الذي كانت فيه الجماعات الانسانية تعيش في عزلة تامة بعضها عن بعض، وأصبح عقل الإنسان يتحكم بالطبيعة أكثر مما تتحكّم الطبيعة بالإنسان.

ولكن ما يهمنا من هذه الناحية، أن نذكر، أن الوحدة الطبيعية الجغرافية البارزة في الوطن العربي، قد مهّدت لقيام الوحدة اللغوية والتاريخية والثقافية، كما ساعدت على قيام الوحدات السياسية التي رأيناها في التاريخ العربي. ووفّرت الجو الضروري لاحتكاك العرب وتفاعلهم منذ عهد ما قبل الميلاد والاسلام حتى يومنا هذا، وكانت عاملاً ضرورياً لإيجاد القومية العربية الواحدة.

والوطن العربي الذي تعيش فيه الأمة العربية يشكّل إلى جانب النقاط السابقة وحدة اقتصادية متكاملة تدعمها امكانات طبيعية هائلة. فهو امكانات زراعية نلمسها بوضوح في سهول مصر والسودان والعراق وسوريا الخصيبة، وهو امكانات صناعية نراها في نفط جزيرة العرب، ومعادن المغرب العربي، وهو امكانات تجارية نلمسها في هذا الموقع الاستراتيجي الممتاز في قلب العالم، وهذه الشواطىء الممتدة ما بين المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندي.

وقبل أن ننتهي من هذه الناحية، لا بد أن نذكر أن الأرض العربية ليست أبداً مجرد معادن ومناجم وحبوب وسواحل تجارة، إنها قطعة من الحياة العربية، فيها نشأنا وفيها تفاعلنا وفيها امتزجنا، ارتبط تاريخنا الطويل بكل شبر من أرضها وكل ذرة من ترابها، بكل نكبة حلّت بنا فيها وبكل انتصار أحرزناه عليها. فهي ليست قطعة أرض جامدة. إنها معنى كبير وارتباط عميق حفره التاريخ فينا.

٤ ـ وحدة العادات والتقاليد والثقافة

بالإضافة إلى الروابط السابقة، تتوفر في القومية العربية وحدة العادات والتقاليد والثقافة بوجه عام. هذه العادات والتقاليد العربية هي مجمل القواعد التي وضعتها الأمة العربية في سيرها عبر التاريخ لتنظيم سلوك أفرادها بما تعارفت عليه من قيم وفضائل، ولتنظيم علاقة الأفراد بعضهم ببعض وبغيرهم بما تعارفت عليه من مقاييس، ولتنظيم علاقة الأفراد بالكون عامة بما تعارفت عليه من تفسيرات ونظرات في الحياة، فهي تنعكس بكلمة، في وحدة التشريع العربي مكتوباً كان أم متداولاً، وهي في حد ذاتها نتيجة طبيعية لوحدة الوطن الذي تفاعل فيه العرب، ووحدة الخبرات والتجارب التي خاضوها عبر تاريخهم

الـواحد، ووحـدة اللغة التي تـداولـوا بـواسـطتهـا في مـا بينهم، خـبراتهم وتجـاربهم وقيمهم ومقاييسهم ونتاجهم بوجه عام.

وتمتد وحدة التشريع هذه إلى العادات والتقاليد والمقاييس والقيم والمعاملات والمراسيم التي كـانت تسود عنـد العرب قبـل الإسلام، والتي تهـذّبت وتركّـزت وتـطوّرت في الاسـلام وبعده. لا شك أن الإسلام قد قضى على بعض العادات والتقاليد، كما استبدل قيماً بأخرى، ووضع مقاييس جديدة؛ ولكن الذي لا شك فيه أيضاً، إن الإسلام لم يكن في جوهره غريبـاً عن العرب والقيم والمقاييس العربية. ونتيجة وحدة التشريـع، ووحدة التجارب والتاريـخ، ووحدة اللغة التي مكّنت العرب من تداول هذا التشريع والتراث، تولدت الثقافـة الواحـدة. وقد تجسّدت هذه الثقافة في رسالة الاسلام التي بشّر بها العرب العالم. كما تجسّدت في التراث العربي الفكري والأدبي والفني.

هذه العادات والتقاليد والثقافة العـربية تحتاج إلى جرد جـديد... فبعضهـا يحتاج إلى بعث واحيـاء... وبعضهـا تـراكم عليه فسـاد عصور الانحـطاط والاستعمار الـتركي والغربي الطويل وشوّهه تشويهاً كبيراً، ويجب أن نجلو عنه هذه الترسبات لنصل إلى جوهره الأصيـل. وبعضها يحتاج إلى تطوير يتلاءم والتقدم الحضاري ويجاري روح العصر الحديث.

ـ واليوم إذ تقف الأمة العربية على أبواب نهضتها، تحتك احتكاكاً مباشراً مـع الحضارات والاتجاهات الفكرية العـالمية المختلفـة، قد يـرى البعض أن هذه الـرابطة من روابط القـومية العـربية قـد ضعفت بحيث يخشى على وحـدة المجتمـع العربي وشخصيتـه. ولكننـا يجب أن نلاحظ أن الأمة العربية اليوم تمر في مـرحلة انتقاليـة وأنها لن تلبث أن تأخـذ من الحضارة مـا تراه يتناسب مع تراثها وشخصيتها القومية. عندئذ تـتركز الحيـاة العربيـة على أسس تتنـاسب وروح العصر دون أن تفقد الأمة طابعها الأصيـل، وشخصيتها القـومية العـربية التي تبلورت مع التاريخ.

٥ ـ وحدة المصالح

لا شك أن مصلحة العيش المشترك في أية جماعة، العيش المشترك الذي يمهّـد إلى قيام مجتمع قومي واحـد، ودولة قـومية واحـدة تنظّم تنـظيماً متكـاملاً مختلف مـرافق حياة الجماعة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقومية عامة لما فيه خير المجموع القومي، لا شك أن هذه المصلحة الواحدة عامل هام في تثبيت الوحدة القومية.

بل قد يكون من الصعب أن نتحدث عن شعـور قومي واحـد، ومجتمع قـومي واحد، متماسك، وعن تفاعل حياتي قومي شامل، حين لا تكون هنـاك أية مصلحـة على الاطـلاق، سياسية واقتصادية واجتماعية وقومية تربط بين الغالبية العظمى من أفراد القومية الـواحدة، أو حين يؤدي مثلاً العيش المشترك بين الجماعة القـومية إلى مصالح متضـاربة متنـافرة لا تحقق الاستقرار، ولا تهيّء لمجتمع قومي متماسك يحقق انسانية الأمة ويوفّر الجو الطبيعي لتفـاعل الأفراد وانتاجهم.

والعرب تجمعهم مصلحة واحدة في الحياة القومية الواحدة.

أ ـ **تجمعهم مصلحة سياسية واحدة**، في اقامة دولة عربية واحدة تذوب فيها هذه الدويلات المتعددة وتتجسّد فيها ارادة الأمة، دولة عربية واحدة تمتد من شواطىء الأطلسي إلى خليج العرب، تذوب فيها هذه الاتجاهات السياسية المتنافرة المتضاربة التي تسير عليها بعض الحكومات، وتقف صخرة راسخة أمام الأخطار والأطماع التي تهدّد دوماً هذه المنطقة الحيوية الحسّاسة من العالم، وفيها من الامكانات البشرية والمادية والروحية، ولها من المركز الاستراتيجي الممتاز، ما يمكّنها ليس فقط من المحافظة على استقلال الأمة العربية، بل أن تصبح قوة سياسية تستطيع أن تؤثر تأثيراً فعّالاً في تحويل مجرى الأحداث العالمية نحو انسانية أفضل، وارساء العلاقات الانسانية على أسس ايجابية خيّرة، كما تستطيع بما لها من قوة أن توفّر الاستقرار اللازم لتحقيق العدالة السياسية لجميع الأفراد.

ب ـ **والعرب تجمعهم مصلحة اقتصادية واحدة، في اقامة دولة قومية عربية واحدة تستغل هذه الامكانات الاقتصادية الهائلة التي تتمتع بها الأمة العربية**، من الثروة النفطية الضخمة في جزيرة العرب، إلى الثروة المعدنية الغنية في المغرب العربي، إلى الثروة الزراعية والحيوية الكبيرة في مصر والسودان وسوريا والعراق، استغلالاً يقوم على تخطيط اقتصادي موحد متكامل، ينظّم الحياة الاقتصادية العربية من صناعة وزراعة وتجارة تنظيماً يحقق العدالة لجميع الأفراد. إن هذه المصلحة الاقتصادية الواحدة، حين تخطط تخطيطاً قومياً واحداً متكاملاً، ستخلصنا من كثير من المشاكل الاقتصادية التي نعيش فيها. كما ستخلصنا من كثير من المشاكل السياسية التي قد تؤدي إليها مشاكلنا الاقتصادية.

فهي أولاً: ستقضي على هذه التجزئة في الامكانات الاقتصادية التي تحصر ثروة كل قطر عربي في الدولة القائمة فيه، وتمنع ايجاد اقتصاد عربي متكامل، إن النتيجة الطبيعية لهذه التجزئة السياسية وما يتبعها من تجزئة اقتصادية، أن تعيش الأمة العربية ضعيفة فقيرة بالرغم من الثروة الاقتصادية الهائلة التي تملكها(١١). وحين تقوم الدولة القومية العربية الواحدة، وتجمع هذه الامكانات الاقتصادية المبعثرة، فإنها تكون عندئذ قد أوجدت الكيان الذي تتوفر فيه مقومات الاقتصاد الاشتراكي بشكل سليم متكامل يحقق العدالة الاقتصادية للأمة العربية بأجمعها. ولنتصور الآن، أية عدالة اقتصادية فعّالة يمكن أن تتحقق في سوريا أو الأردن أو لبنان أو تونس أو ليبيا أو في مصر (رغم امكاناتها) إذا لم توحد هذه الدويلات العربية امكاناتها الاقتصادية في دولة قومية عربية واحدة تتمكن من تطبيق نظام اشتراكي عادل فعّال؟

وهي ثانياً: ستقضي على كثيرٍ من المشاكل الاقتصادية التي تتعرض لها معظم الدويلات العربية اليوم. إن مصر اليوم مثلاً تعاني مشكلة اقتصادية أساسية، تتلخص، في أن عدد السكان يتزايد بنسبة هندسية بينما تتزايد ثروتها الاقتصادية ودخلها القومي (مساحة الأرض

---

(١١) لا شك في أن التجزئة في الاقتصاد ليست هي السبب الوحيد في ضعف الاقتصاد العربي، بل هناك طريقة استغلال هذه الثروات، والأوجه التي تصرف فيها.

المزروعة ومختلف المشاريع الاقتصادية) بنسبة عددية، مما يؤدي إلى انخفاض مستوى الفرد العربي في مصر، وما ينشأ عن ذلك من مضاعفات أخرى كمشكلة البطالة وغيرها، بينما إذا نظرنا إلى سوريا، نجد أنها تحتاج إلى أيدي عاملة تستغل الأراضي الصالحة للزراعة والمهملة في الوقت الحاضر لعدم توفّر هذه الأيدي العاملة. وهذه المشكلة التي تعانيها مصر لا تحل حلاً فعالاً نهائياً بالاتجاه نحو التصنيع أو استصلاح الصحاري، ولنتأمل، ترى ما الفائدة التي سنحصل عليها حين ينزح عدد كبير من المصريين ليستوطنوا سوريا، فيستغلوا هذه الامكانات الزراعية المهدورة في سوريا أولاً ويخففوا عن مصر ارتفاع نسبة السكان المتكاثفة ثانياً؟

ولنتابع السلسلة، إن مصر اليوم تتجه نحو التصنيع لبناء اقتصادها، ولا شك أنها تحتاج إلى كثير من مقومات البناء الاقتصادي، والمواد الخام الموجودة في مصر لا تكفل لها هذا البناء تماماً، بينما نرى في المغرب العربي، ثروات معدنية هائلة تضع المغرب في صف الدول الأولى المنتجة للثروة المعدنية، ترى ما هي الفائدة التي سنحصل عليها، حين تقوم الدولة القومية العربية الواحدة وتخطط اقتصادها على أساس التكامل الاقتصادي بين مختلف أجزاء الوطن العربي؟

إن الأمثلة على المصلحة العربية المشتركة في ايجاد وحدة اقتصادية عملية أكثر من أن تحصى، ولن نفصّل فيها هنا، فإن نظرة واحدة إلى امكانات الوطن العربي تبرهن بوضوح على صحتها وأهميتها.

وهي ثالثاً: ستسير بالأمة العربية نحو سياسة الاكتفاء الذاتي. ولا شك أن هذه الناحية نتيجة منطقية لتوفر الناحية السابقة، أي المصلحة الاقتصادية الواحدة.

فمعظم الدول العربية اليوم لا تزال دولاً مستهلكة أكثر منها منتجة، مصر مثلاً، تستعمل زيت القطن في الطعام والصناعة، وتستورد زيت الزيتون ومن أين؟ من اليونان... بينما نجد أن المغرب العربي، وتونس خاصة، يقدّر البعض عدد أشجار الزيتون الموجودة فيها بـ ٢٧ مليون شجرة، فهي من أول دول العالم في انتاج زيت الزيتون... ومصر، تحتاج كمية ضخمة من الحبوب وهي تستورد قمحها من الخارج، وتستغل بعض الدول حاجة مصر إلى هذا الغذاء الأساسي، فتستعمله وسيلة للضغط السياسي والمساومة، كما حدث مؤخراً في الموقف الذي وقفته أمريكا بعد العدوان الثلاثي، بينما نجد أن العراق وسوريا تنتجان كميات ضخمة من الحبوب سنوياً. وكذلك الأمر بالنسبة إلى ليبيا التي تستورد قمحها من أمريكا وتستغل أمريكا هذه الناحية أيضاً لإيهام الشعب العربي هناك أن عنصراً أساسياً من غذائه اليومي يتوقف عليها بينما تبحث الأجزاء الغنية عن أسواق لمنتجاتها!!

أيضاً، الأمثلة على المصلحة العربية الواحدة في ايجاد وحدة اقتصادية عربية متكاملة تحقق الاكتفاء الذاتي أكثر من أن تحصى. ولا شك أن أهمية هذا الأمر، تتضح أكثر في المشاريع الصناعية الضخمة وما تتطلب من معادن ونفط وغيرها...

وهي رابعاً: ستجنب الأمة العربية كثيراً من المشاكل السياسية. لا يكاد يمر يوم، إلاّ نسمع عن المساعدات التي تطلبها الحكومات العربية لرفع مستواها وإنماء مشاريعها الزراعية والصناعية الاقتصادية عامة. وبعض الحكومات العربية المخلصة (الكتلة العربية المتحررة) تشترط أن تكون هذه المساعدات غير مشروطة، ولكن بعض الحكومات العربية الأخرى، تتخذ من الحالة الاقتصادية السيئة مبرراً لتثبيت نفوذ الاستعمار في الوطن العربي. ونحن العرب نملك كل الامكانات التي تحقق لنا الاكتفاء الذاتي وتجنّبنا الاستعمار السياسي الناشىء عن المساعدات الاقتصادية الأجنبية.

إن الدولة القومية العربية الواحدة، التي تجمع كل امكاناتنا العربية الاقتصادية في تخطيط اقتصادي قومي عربي متكامل عادل، هي الطريق الوحيد السليم للنهضة الاقتصادية. وإذا تركنا جانباً الأمثلة التفصيلية السابقة، نجد أن الأمة العربية اليوم كلها تحتاج إلى بناء اقتصادها القومي المتفكك بناءً يتجه بها نحو التصنيع الثقيل والاكتفاء الذاتي وتوفير الوسط الذي تتوفر فيه مقومات الاقتصاد الاشتراكي، وبناء يستغل الثروة النفطية في الجزيرة العربية والمعدنية في المغرب العربي والزراعية والحيوانية في السودان ومصر وسوريا والعراق، استغلالاً عربياً واحداً مشتركاً، ويستغل رؤوس الأموال الضخمة في الكويت والسعودية والعراق، لتمويل المشاريع التي تدعم اقتصادنا كالسد العالي في مصر، وتجفيف مستنقع الغاب في سوريا، واستخراج البوتاس في الأردن وغيرها كثير.. . استغلالاً يحقق العدالة الاقتصادية لكل فرد عربي.

ج ـ والعرب بعد ذلك تجمعهم مصلحة اجتماعية واحدة، المصلحة في أن نعيش أمة واحدة متحرّرة في مجتمع قومي عربي واحد عادل، تزول منه هذه الحواجز الاقليمية المصطنعة، وتذوب في حرارة وحدته هذه النزعات المحلية الضيقة والعصبيات الطائفية التي خلقتها التجزئة الطويلة التي عشنا فيها أو عمل على خلقها وتثبيتها الاستعمار، مجتمع واحد تتوحد فيه النظم التربوية والثقافية، وتتفاعل فيه قوى القومية العربية المادية والروحية والبشرية تفاعلاً حيّاً يفجّر امكانات الفرد العربي لخير الأمة العربية وامكانات الأمة العربية لخير الإنسانية.

إن مصلحة العيش المشترك في مجتمع قومي عربي واحد وفي ظل دولة عربية واحدة، تنظّم تنظيماً متكاملاً عادلاً مختلف شؤون العرب، في مصر والمغرب وجزيرة العرب والهلال الخصيب، سياسية كانت أم اقتصادية أم اجتماعية، إن هذه المصلحة عامل هام لا شك في تثبيت الوحدة القومية وبلورتها. وهذه الوحدة في المصلحة الشاملة تتوفر في الأمة العربية ولا تحتاج إلاّ إلى التجسيد العملي في دولة واحدة.

ولكننا قبل أن ننتهي من هذه الناحية لا بد أن نتوقف قليلاً عند مفهوم المصلحة.

نلاحظ في هذه الآونة الأخيرة كثيراً من الاتجاهات التي لا تعتبر مصلحة العيش المشترك رابطاً من روابط القومية الواحدة فقط، وإنما تنظر إلى المصلحة على أنها كل شيء. فالمصلحة الواحدة في نظرهم هي التي تخلق القومية الواحدة. والواقع أن في هذا الاتجاه كثيراً من

التعسّف كما فيه نظرة جزئية سطحية، لأنه يبني كل نشوء القومية على رابط واحد فقط من روابط القومية المتعددة.

إن القومية الواحدة تقوم على تفاعل روابط اللغة والتاريخ والثقافة والمصلحة تفاعلاً حياً تاريخياً، ولا تقوم على رابط واحد من هذه الروابط، ولو نحن أخذنا جانباً واحداً من هذه الجوانب فقط، وحاولنا أن نقيم عليه كل آرائنا، وكل اتجاهاتنا عن الواقعية في النظرة والشمول والتفكير.

يقول أصحاب نظرية المصلحة إن ما يوجد القومية العربية الواحدة هو الصراع الذي يدور بين الشعب العربي من جهة والأخطار المحيطة به من جهة ثانية وما يتولّد عن هذا الصراع والكفاح الواحد من شعور بضرورة التكتل ضد هذه الأخطار. ولذلك فإن القومية العربية هي شعار سياسي تقتضيه مصلحة المرحلة الحاضرة من حياة الأمة العربية والظرف الخاص الذي يمرّ به الشعب العربي. ولذلك، فحالما تمر هذه المرحلة وينتهي ذلك الظرف لن يكون هناك شيء اسمه القومية العربية! وأصحاب هذه النظرية لا يقصدون بالكفاح الواحد ضد الأخطار أي معنى تاريخي، فلو قالوا مثلاً، إن المصير الواحد والظروف الواحدة التي مرّت على الأمة العربية خلال تاريخها الطويل قد أدّت إلى وجود القومية العربية، لهان خطأهم قليلاً. ولكنهم يقصدون الكفاح الموحّد الذي نخوضه نحن العرب اليوم ضد كل ما يحيط بنا من أخطار، فالقومية العربية في رأيهم هي بنت الأمس القريب.

فلنناقش هذا الرأي قليلاً.

حين كانت الامبراطورية العثمانية لا تزال متماسكة في القرن التاسع عشر كانت تسيطر على بلدان كثيرة من ضمنها الوطن العربي واليونان وغيرهما. هذه البلاد كلها كانت ترزح تحت نير الاستعمار العثماني، فهي بالتالي كانت تواجه خطراً واحداً، وفي القرن التاسع عشر، بدأت في هذه الدول الحركات الاستقلالية الهادفة إلى التحرر من الاستعمار العثماني، قامت في كل الدول الواقعة تحت نير هذا الاستعمار كما قامت في ما بعد في الوطن العربي.

المفروض الآن، حسب منطق أصحاب نظرية «المصلحة تكوّن القومية»، ان كل الشعوب الرازحة تحت نير الاستعمار العثماني بما فيها الوطن العربي كانت تشكل قومية واحدة متجانسة في ذلك الحين، نظراً إلى المصلحة الواحدة التي تجمعهم وهي مصلحة التحرّر من الاستعمار ونظراً إلى أنهم جميعاً يخوضون كفاحهم ضد عدو واحد هو الامبراطورية العثمانية!!

ولكن ما الذي حصل؟

الذي حصل أننا رأينا الحركات الاستقلالية تتحدّد حسب القوميات المختلفة، فنمت في كل قومية حركة استقلالية خاصة بها، تقوم على بث الشعور القومي وتتحدّد بأهداف قومية واضحة خاصة بكل قومية. ولم نرَ في ذلك الحين قومية واحدة تجمع كل تلك الشعوب غير المتجانسة.

ولنأخذ مثلاً آخر.

من المعروف أن القومية العربية تخوض صراعاً عنيفاً مع بريطانيا منذ أكثر من قرن. والهند أيضاً كانت تخوض صراعاً عنيفاً مع بريطانيا منذ سنوات طويلة. إن مصلحتنا أن نتحرر من حكم بريطانيا كما كانت مصلحة الهند أن تتحرّر من حكم بريطانيا، وكان المفروض أن تؤدي وحدة المصلحة هذه إلى دمج القومية العربية بالقومية الهندية لاستخراج قومية جديدة! أو أن تندمج القومية العربية مع الماوماو في كينيا التي تجمعنا معها مصلحة التحرّر من بريطانيا لاستخراج قومية جديدة!

ونزيد على هذه الأمثلة أن العالم ينقسم اليوم إلى ثلاثة معسكرات رئيسية. دول المعسكر الغربي، ودول المعسكر الذي يؤمن بالشيوعية (والتي اعتدنا أن نسميها بالمعسكر الشرقي)، ومعسكر الحياد. ومن المعروف أن عدداً من دول الكتلة الآسيوية ـ الافريقية، ومن ضمنها الوطن العربي، ينتسب إلى هذا المعسكر الأخير، معسكر الحياد. ومعظم دول هذا المعسكر تجمعها مصلحة واحدة في البقاء على الحياد من الصراع الدائر بين المعسكر الغربي والمعسكر الشرقي، فهل يعني هذا أن دول معسكر الحياد التي تجمعها مصلحة واحدة تؤلف قومية واحدة؟!

إنه من الواضح خطأ هذا الرأي.

والسبب في خطأه واضح أيضاً، فلا بد وأن يكون هناك روابط أخرى إلى جانب رابطة المصلحة تشد الجماعات البشرية إلى بعضها البعض وتكوّن منها قوميات مختلفة متميزة.

إن الكفاح المشترك الواحد، ووحدة الأخطار، والمصلحة الواحدة في التكتل ضد هذه الأخطار، لا شك عامل هام في ايجاد الترابط القومي، ولكننا لا يمكن أبداً أن نقول إن هذه المصلحة هي التي تخلق القومية. ولنتساءل بعد ذلك: إذا كانت مصلحة التكتل ضد الأخطار ومصلحة الكفاح الموحد هي التي تخلق القومية، فمن المفروض إذن، أن جميع الشعوب التي نالت استقلالها لم تعد تكوّن قوميات، لأنها حسب المنطق السابق قد اجتازت مرحلة الكفاح الموحد، والظروف التي تستلزم ضرورة التكتل والاتحاد، أي أنه ليس هناك اليوم شيء اسمه قومية هندية، ولا شيء اسمه قومية صينية، ولا شيء اسمه قومية يوغوسلافية... الخ.

وواضح أيضاً خطأ هذا الرأي.

نحن لا نستطيع أبداً أن نقول إن القومية الهولندية قد خلقت بفعل نضال الهولنديين ضد اسبانيا، أو إن القومية الايطالية خلقت نتيجة نضال الايطاليين ضد النمسا، أو إن القومية الألمانية خلقت نتيجة نضال الألمان ضد النمسا وفرنسا والدانمارك، أو إن القومية العربية قد خلقت نتيجة نضال العرب ضد بريطانيا وفرنسا واسرائيل وأمريكا.

إن الذي تولّد عن النضال المشترك ضد الأخطار التي تحيط بالأمم، هو:

نمو الشعور القومي،

وهو تبلور الروح القومية،

وازدياد الوعي القومي،

ولكنه ليس أبداً نشوء القوميات!

ونحن لا ننكر هنا أهمية المصلحة الواحدة في دعم الوحدة القومية، لدى أية جماعة، المصلحة في العيش المشترك في مجتمع قومي واحد تتكافل فيه مصالح الأفراد الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لمصلحة المجموع القومي، ولكن يتضح بجلاء من الأمثلة السابقة أن القومية لا يمكن أن تقوم أبداً على عامل المصلحة فقط. وإلّا وجب أن تندمج ثلاثة أرباع قوميات العالم في قومية واحدة. كما لا يمكن أن تقوم على عامل اللغة فقط، وألّا توجّب أن تكون أمريكا وبريطانيا قومية واحدة، وأن تكون سويسرا ثلاث قوميات مختلفة، وأن تكون بلجيكا قوميتين مختلفتين.

إن القومية هي الواقع التاريخي الناشيء عن تفاعل عوامل اللغة والتاريخ والأرض والثقافة والمصالح تفاعلاً تاريخياً حياً، ولا يمكن أن تنشأ عن رابط واحد من هذه الروابط، وما يحدث أنه قد تختلف أحياناً درجة أهمية وتأثير هذه الروابط بالنسبة إلى كل قومية. فقد يكون عامل المصلحة هو عامل هام في ايجادها في بعض القوميات، وقد تكون عوامل اللغة والتاريخ والثقافة هو الأهم بكثير في قوميات أخرى كما بالنسبة إلى القومية العربية، ولكن الثابت، أن هذه الروابط القومية، لا يمكن أن يخلق أي منها بمفرده قومية متميزة...

وكما ان المصلحة السياسية في التكتل ضد الأخطار، وفي الكفاح الموحد لا تخلق القومية العربية، فكذلك المصلحة الاقتصادية وحدها لا تخلق القومية العربية أبداً.

إن في كل قومية اتجاهات اقتصادية متباينة إذا أخذنا أجزاء الأمة منفصلة. فالمناطق الزراعية تختلف عن المناطق الصناعية، وهذه تختلف عن السواحل، ولا يمكن أبداً أن نقول إن كلاً من هؤلاء يشكل قومية خاصة حسب وضعه أو مهنته، إلّا إذا جاز لنا أن نقول إن زرّاع العالم يكوّنون قومية لأن مصلحة زراعية واحدة تجمعهم، أو أن كل عمال العالم يكوّنون قومية واحدة لأن ظروف العمل والمهنة تجمعهم... إن ما يطبع الجماعات ويحدّد هويتها هو قوميتهم وليس مهنتهم أو وضعهم الاقتصادي.

«أما وحدة المصالح الاقتصادية وتشابه الأعمال في جماعة واحدة، فقد اعتبرها البعض عاملاً رئيسياً لتكوين الأمة. ولعل هذا من آثار المدرسة الاقتصادية التي تفسّر التاريخ تفسيراً اقتصادياً. فقد قيل إن هذه المشاركة تعين على توحيد وجهات النظر بين الأفراد ومن ثم تؤدي إلى توحيد شعورهم. وقد يصحّ هذا في بعض الحالات. فلعله كان عاملاً مؤثراً في الدانمرك. لكنا إذا حاولنا تطبيقه على بلاد أخرى وجدناه لا يغني فتيلاً. فأي اشتراك نستطيع أن نلمسه، من الناحية الاقتصادية البحتة، في حياة سكان جنوبي فرنسا وسكان شمالها الشرقي؟ فأهل الجنوب يغرسون الكرم وأهل الشمال يعملون في المناجم والمصانع. والذي يمكن أن يقال بهذه المناسبة، أن أهل ليل في فرنسا مثلاً، أقرب إلى سكان حوض الرور الألماني في تفكيرهم الصناعي الاقتصادي. ومثل هذا يمكن أن يقال عن أهل برمنغهام وأهل ديفون في انكلترا. ومثل هذا كثير»[١٢].

---

(١٢) نقولا زيادة، العروبة في ميزان القومية.

ونلخص ما سبق بقولنا: إن وحدة المصلحة في أية جماعة لا تكفي أبداً وحدها عاملاً لجعلهم قومية متميزة، إذ لو صح هذا الفرض لوجب أن تكون كثير من قوميات العالم القائمة اليوم قد اندمجت منذ زمن طويل في قومية واحدة، بالإضافة إلى أن المصالح السياسية والاقتصادية قد تتغير، مما يجب أن يؤدي حسب الفرض السابق، إلى ظهور قوميات جديدة واختفاء قوميات كانت موجودة تبعاً لتغير المصالح.

إن ادراك أفراد القومية العربية ان في ترابطهم القومي تكمن منابع قوتهم، وانهم بوحدتهم القومية يستطيعون مجابهة الاستعمار واليهود ومختلف الأخطار المحيقة بهم، ويحافظون على استقلال شخصيتهم ويصبحون قوة سياسية يمكن أن تؤثر في مجرى العالم، وإدراكهم أن مستواهم الاقتصادي والاجتماعي عامة سيرتفع ويمكنهم من استغلال امكاناتهم استغلالاً منتجاً خلاقاً. إن هذه الوحدة في المصالح السياسية والاقتصادية والاجتماعية تتوفر للعرب وتزيد من وحدتهم القومية.

٦ ـ وحدة الإرادة

يجعل كثير من المفكرين لعنصر الارادة أثراً كبيراً في الترابط القومي وايجاد الوحدة القومية؛ إرادة العيش المشترك، ارادة الأفراد أن يحيوا حياة قومية واحدة في مجتمع قومي واحد وفي ظل دولة قومية واحدة. ولا شك أن عامل الارادة حين يتوفر، عامل هام جداً في تماسك الوحدة القومية لأية أمة.

ولكن يجب أن نلاحظ، أن عنصر الارادة القومية العربية المشتركة لا يتولد إلاّ من الشعور بالذات القومية العربية. إن الارادة في العيش المشترك في مجتمع قومي عربي واحد ودولة عربية واحدة لا توجد اعتباطاً، ولا يخلقها عقل بعض الأشخاص أو رغبتهم فقط، ولكنها تجد أساسها في تفاعل عوامل اللغة والتاريخ والأرض والثقافة والمصلحة الواحدة، وما تخلقه هذه العوامل الواحدة من تميّز في هذا الطابع ووحدة في الشعور، عندئذ، تبرز إرادة العيش المشترك. ولهذا فإن عامل الارادة يتوقّف على درجة تبلور الوعي القومي لدى أية أمة ما، وهذا الوعي بدوره يتوقف على مدى شعور أفراد القومية العربية بوحدتهم القومية شعوراً عاقلاً فاعلاً.

وإذا لم تنبع القومية من وحدة الروابط التي كوّنت هذه القومية عبر التاريخ، فإنها تصبح ارادة مصطنعة لا تجد أساسها في الأصالة التاريخية ولا تنبع من جو طبيعي سليم، كما أنها تكون ارادة عرضية تتوقف على وعي الأفراد أو عدم وعيهم، أو رغباتهم وانفعالاتهم.

ولكننا يجب ألاّ ننكر أن ارادة العيش المشترك حين تتوفر وتتبلور بتبلور الوعي القومي، تدفع الوحدة القومية دفعاً كبيراً لأنها بمثابة التجسيد العملي للروابط السابقة التي ترسخت على مرّ التاريخ. إنه لا يكفي أبداً، أن نعرف أنه تجمعنا وحدة الوطن واللغة والتاريخ والثقافة والمصالح، ولا بد أن يتوفّر لدينا الارادة التي تدفعنا لتجسيد هذا الوجود القومي الواحد في دولة قومية عربية واحدة، وتدفعنا للنضال ضد العقبات التي تعلّق تحقيق هذا الهدف وتجعلنا

نعيش في أوضاع شاذة تنافي طبيعة وجودنا القومي العربي. ونحن نجد اليوم، أن الارادة القومية العربية في حياة عربية واحدة مشتركة قد بدأت تتبلور وتتجسّد وتعبر عن وجودها، كما بدأت تتحدد بأهداف قومية واضحة تهدف إلى القضاء على التجزئة والاستعمار والدولة اليهودية وارساء أسس المجتمع القومي العربي الواحد المتحرر العادل، مما يزيد في تماسك قوميتنا العربية ويعمق وحدتها.

* * *

هذه هي روابط القومية العربية:

اللغة والتاريخ والثقافة والوطن والمصلحة والارادة الواحدة. ويجب أن نذكر بوضوح أن القومية العربية ليست كلمات مصفوفة في تعريف، وليست المجموع الحسابي لروابط أضيفت إلى بعضها اضافة حسابية جامدة... وليست عوامل تتراكم بعضها فوق بعض تراكماً خالياً من الحياة مطلقاً.

إن القومية العربية هي واقع العرب التاريخي الحي الذي تكوّن نتيجة تفاعل جميع الروابط السابقة في التاريخ العربي الطويل. تفاعلاً حركياً شد العرب في وحدة قومية متميزة متفاعلة.

ونحن إذا لاحظنا بعض الفوارق بين أجزاء الأمة العربية الواحدة، فهي لا تختلف عن الفروق التي نشاهدها بين الأنحاء المختلفة من الجزء الواحد. كما أن بعض هذه الفوارق قد ولّدها الانحطاط والاستعمار التركي البشع، والتجزئة الطويلة القاسية التي جعلتنا نعيش في امارات ودويلات يسيطر عليها الاستعمار الذي يغذّي فيها التجزئة، ويخيّم عليها الفقر والجهل والجمود...

ولكن هذه الفروق ليست جوهرية ولا أساسية، نستدل على ذلك من ملاحظة بسيطة: فإن الانحطاط الطويل وما رافقه من فساد، لم يستطع خلال مئات من السنين أن يقضي على الشخصية القومية العربية. والاستعمار التركي الطويل وعصور الجمود والاقطاع التي رافقته، والمحاولات التي بذلها لتتريك العرب، والاستعمار الغربي من بعده، والمحاولات التي قام بها لفرنسة العرب تارة، وتجزئة وحدتهم القومية بخلق نزعات اقليمية وعصبيات طائفية ونعرات مذهبية تارة أخرى، لم يستطيعا أن يقضيا على الشخصية القومية العربية رغم أن هذين الاستعمارين قد جاءا في أشد فترات الانحطاط والضعف العربيين، وكل ما استطاعا هو تشويه بعض القيم والمقاييس العربية، وتكبيل الأمة العربية ومنعها من الانطلاق والتجسد، ولا شك في أن هذا كثير، ولكننا نعود اليوم لنسير ثانية في الطريق، تتجسد فينا ارادة قومية عربية جبارة.

ثانياً: القومية العربية في نشوئها وتطورها منذ بدء التاريخ حتى بدء الانحطاط

لقد مرّت القومية العربية في نشوئها وتطورها بمرحلتين اثنتين أساسيتين:

المرحلة الأولى: هي المرحلة التي بدأت تتحدّد فيها البذور التكوينية الأساسية للقومية العربية، أي بدأت تتكوّن وتبرز إلى عالم الوجود المعالم الأولية للقومية العربية.

المرحلة الثانية: هي مرحلة نمو وتبلور وتطور القومية العربية عبر التاريخ ضمن اطار التحديد الأساسي الذي حدث في المرحلة الأولى.

أما من الناحية الزمنية، فقد حصلت المرحلة الأولى، وانتهت في الأعماق السحيقة من التاريخ، منذ أن وجد أول تجمُّع بشري عرف في ما بعد بأنه عربي، وأرسيت في ذلك الزمن البذور التكوينية الأولى لأسس القومية العربية.

أما بالنسبة إلى المرحلة الثانية، فقد بدأت ببدء المرحلة الأولى، ولكنها استمرت بعد انتهائها، أي استمرت باستمرار نمو الجماعة العربية عبر التاريخ، ولا زالت مستمرة، وستبقى مستمرة ما بقيت الأمة العربية.

وسوف نستعرض في ما يلي بشكل موجز المرحلة الأولى لنشوء القومية العربية ونترك المرحلة الثانية إلى الفصول المقبلة.

فكيف وجدت القومية العربية وتحددت معالمها الأولية؟ أي، كيف حصلت المرحلة الأولى، وأخذت مجراها، وأين؟

كيف وجدت القومية العربية وتحدّدت معالمها الأساسية وأين؟

لقد وجدت القومية العربية بحالة بذور تكوينية مع بدء وجود أول جماعة بشرية عرفت في ما بعد، بأنها عربية في لغتها وتاريخها وأرضها وعاداتها وتقاليدها وشخصيتها العامة، وقد كان ذلك في جزيرة العرب منذ آلاف من السنين لم يستطع التاريخ تحديدها إلى الآن بشكل نهائي. ففي ذلك الزمن البعيد وجدت في الأطراف المخصبة من جزيرة العرب[١٣]، أول جماعة بشرية كانت هي النواة الأولى للأمة العربية.

ولم تختلف بداية الوجود العربي عن بداية أي وجود آخر: تجمُّع بشري يعيش بعضه مع بعضه الآخر في أرض مشتركة محددة. ويخضع لظروف وشروط حياتية واحدة، ويعمل لتأمين متطلباته الحياتية الأولية. مما وفّر الوسط اللازم لحدوث الاحتكاك الاجتماعي بين أفراد

---

(١٣) هناك نظريات وأبحاث علمية تؤكد أن الجزيرة العربية في الماضي البعيد كانت أرضاً خصبة، وأن نسبة الصحارى فيها كانت قليلة ومحدودة جداً.

هذا التجمّع الذي كان النواة الأولى للأمة العربية. وقد كانت هذه النواة الأولى تحمل معها البذور التكوينية الأولية للروابط والأسس القومية العربية.

ونتيجة تشارك هذه النواة الأولى في الأرض الواحدة وخضوعها لظروف وشروط حياتية واحدة، وتأثرها كوحدة بهذه الظروف والشروط، ونتيجة التفاعل الاجتماعي الذي اتخذ مجراه بين أفراد هذه النواة، وجد لهذه النواة العربية الأولى لغة واحدة هي اللغة العربية(١٤) التي نشأت بنشوء النواة الأولى للأمة العربية، وتطورت وتبلورت مع نمو وتطور وتبلور الأمة، بحيث جاءت انعكاساً لشخصيتها، كما وجد لهذه النواة عادات وتقاليد واحدة، كانت في جوهرها تعبيراً عن القيم والمقاييس ومجمل القواعد التي اتخذتها الجماعة العربية الأولى لتنظيم شؤون حياتها، بحيث جاءت أيضاً انعكاساً لخصائصها وصفاتها ونفسيتها، وبمرور الزمن، بدأ يتكوّن لهذه النواة تاريخ واحد، إذ خاضت هذه النواة غمار التاريخ كوحدة، مما أوجد لها تجاربها ومواقفها وذكرياتها وطبيعتها الخاصة.

ولن نكرر هنا كيف بدأ التجمع العربي غير المتميز، يكتسب الطابع القومي العربي المتميز، فكما نشأت أية قومية نشأت القومية العربية، وتحددت معالمها الأولية في جزيرة العرب نتيجة وحدة الأرض واللغة والعادات والتقاليد والتاريخ. ولا شك أن وحدة الأرض والظروف والشروط والمتطلبات الحياتية، قد مثّلت دوراً كبيراً في عملية التكوين الأساسي للقومية العربية، فبدئها، بدأ الوجود البدائي للقومية العربية، وباستمرارها، تمكّنت الجماعة العربية الأولى من أن تتفاعل وتحتك بعضها ببعض، ومن أن توجد لنفسها لغة واحدة وعادات وتقاليد واحدة، وتاريخاً واحداً، وبكلمة أخذت الجماعة العربية الأولى تكتسب طابعاً قومياً خاصاً مميزاً.

وهكذا وجد للنواة العربية الأولى غير المحددة، شخصية عربية جماعية مميزة إلى حد ما، وتحدّدت المعالم الأولية للقومية العربية.

وبهذا تكون قد انتهت المرحلة الأولى من مرحلتي نشوء وتطور القومية العربية. وفي هذه المرحلة تحدّدت المعالم الأساسية للقومية العربية، وبدأت تتكوّن الشخصية العربية الجماعية المتميزة. وقد تمت هذه المرحلة في جزيرة العرب وانقضت منذ زمن بعيد. ولا شك أن هذه المرحلة الأولى، يكتنفها كثير من الغموض، ولكن ما يهمنا منها، ان في زمنها التقت الجماعة العربية الأولى ووجدت اللغة العربية، والعادات والتقاليد العربية الأولية.

أما المرحلة الثانية، أي مرحلة نمو وتطور وتبلور القومية العربية، فقد بدأت مع بدء المرحلة الأولى، ولكنها استمرت بعد انقضائها على مر التاريخ، ولا زالت مستمرة، وستبقى مستمرة ما بقيت الأمة العربية.

---

(١٤) هناك من يقول بأن اللغة العربية كانت في القديم احدى لغات عديدة كانت تتكلمها أقوام جزيرة العرب، ولكن البحوث العلمية تؤكد أن اللغة العربية هي اللغة الأم لكل تلك اللغات.

ويمكننا تقسيم هذه المرحلة الثانية ـ تسهيلاً للبحث ـ إلى ثلاث فترات:

العرب قبل الفتح العربي ومجيء الاسلام.

العرب منذ الفتح العربي حتى عصور الانحطاط.

العرب منذ عصور الانحطاط حتى يومنا هذا.

ولن نفصّل في بحث هذه المرحلة وفتراتها، إذ ليس مقصدنا بحث التاريخ العربي، ولكننا سنتطرق إلى هذا التاريخ بما يلقي بعض الضوء على موضوعنا الأساسي في القومية العربية.

بعد أن تحددت المعالم الأساسية الأولى للقومية العربية في جزيرة العرب وبدأت النواة العربية الأولى تكتسب شخصية عربية جماعية إلى حد ما، أخذت هذه النواة الأولى تتكاثر وتمتد حتى شملت معظم جزيرة العرب، وتوزعت عليها قبائل متفرقة شكلاً ولكنها متحدة موضوعاً. أي أن معظم مظاهر الحياة كانت في أسسها واحدة لدى جميع هذه القبائل. فاللغة والتقاليد والعادات والأخلاق والنظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية (رغم بساطتها المتناهية في ذلك الحين)، كانت واحدة في جوهرها بالنسبة إلى جميع تلك القبائل العربية.

وهنا قد يثار التساؤل التالي:

إذا كانت القبائل العربية في تلك الفترة البعيدة من التاريخ، قد توفّرت لها هذه الوحدة في مظاهر حياتها الأساسية، فلماذا إذن لم تشكّل مجتمعاً واحداً متماسكاً ودولة واحدة؟

والسبب يرجع إلى عاملين أساسيين:

العامل الأول: هو عدم تبلور ونمو الشخصية القومية العربية في ذلك الحين إلى الحد الذي يجعلها تجسد نفسها في مجتمع واحد ودولة واحدة، فالوحدة إذن التي كانت تتوفر لتلك القبائل كانت وحدة بمعنى: وحدة مظاهر الوجود الاجتماعي، ووحدة المعالم الأولية للشخصية الجماعية الواحدة، والبذور التكوينية للقومية الواحدة.

والعامل الثاني: ان الحياة العربية في ذلك الحين لم تكن مستقرة تمام الاستقرار. فإن ازدياد كثافة السكان بالنسبة إلى موارد الأرض التي كانت تعيش عليها الجماعة العربية الأولى، كان يدفع بالكثير من القبائل لأن تنزح إلى خارج الجزيرة العربية بشكل موجات متتابعة، فإذا أضفنا إلى ذلك طبيعة شبه جزيرة العرب، وصعوبة المواصلات والاحتكاك من جهة، وعدم وضوح مفهوم الوحدة من الزاوية السياسية والاقتصادية لأية جماعة بشرية في ذلك الزمن البعيد من جهة ثانية، لأدركنا لماذا بقيت الجماعة العربية الأولى قبائل متفرقة رغم وحدتها في معظم مظاهر حياتها. ولكن ذلك لم يمنع قيام دول كبيرة نسبياً، وحدت شمل العديد من هذه

القبائل العربية في نوع من وحدة التنظيمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية[١٥]. بل وأكثر من ذلك وجدنا هذه القبائل تقيم في الجزيرة العربية حضارات راقية، وقد استدل العلماء على آثار هذه الحضارات، وحددوا بعض معالمها، ولكنهم لم يتوصلوا بعد إلى تحديدها بشكل تام[١٦].

ومضى التاريخ، وبتأثير عوامل عديدة، وجدنا هذه القبائل تهاجر من الجزيرة العربية إلى المناطق الخصيبة المحيطة بها، وتفيض بشكل موجات متتابعة انتشرت في معظم أرجاء الوطن العربي قبل مجيء الاسلام بزمن بعيد جداً.

فهاجرت منها موجات ما قبل التاريخ المعروف، ويرجح أنها استوطنت مصر وأرض ما بين النهرين في العراق.

ثم تتابعت الموجات العربية المعروفة، وبقيت تتدفق من جزيرة العرب إلى مختلف أجزاء الوطن العربي منذ الألف الرابع قبل الميلاد حتى الموجة العربية الكبرى التي تمثلت بالفتح العربي ومجيء الاسلام، كما استمرت بشكل أقوى بعد الفتح العربي.

فاتجهت بعض هذه القبائل العربية شمالاً، كالأكاديين والبابليين والآشوريين، ليقيموا في ما بين النهرين، والكنعانيين في سهل فلسطين، والآراميين في سوريا، والفينيقيين في سواحل لبنان أولاً وفي شمال افريقيا في ما بعد...

بينما اتجه قسم آخر جنوباً، فنزح عن طريق باب المندب في جنوب جزيرة العرب، وعن طريق صحراء سيناء، إلى وادي النيل وشمال افريقيا، ومن هذه الموجات جاء الفراعنة في مصر وسكان المغرب العربي القدامى[١٧]. ورأينا هذه الموجات العربية، تقيم في الهلال الخصيب، وفي وادي النيل أول حضارات عرفها الانسان، وتبدع في كثير من العلوم ابداعاً رائعاً بالنسبة إلى ذلك الزمن السحيق، وتعطي العالم أول معارفه وثقافته.

أما بالنسبة إلى القبائل العربية التي بقيت في جزيرة العرب، فهي أيضاً قد بلغت حداً كبيراً من التقدم، وأقامت ممالك كبيرة وحضارات راقية. فمن ممالك وحضارات «العرب البائدة» كعاد وثمود وطسم وجديس، إلى ممالك وحضارات العرب العاربة كمعين وسبأ وحِمْيَر. ويستدل من التاريخ، أن هذه الحضارات العربية سواء في وادي النيل أو ما بين النهرين أو جزيرة العرب لم تكن غريبة عن بعضها البعض كلياً، بل كثيراً ما كانت متقاربة في طابعها العام.

ولكن هذه الموجات العربية التي اندفعت خارج جزيرة العرب، بدأت تفقد تدريجياً طابعها العربي الأصيل. فإن الأرض الجديدة التي حلّت بها تلك الموجات، وضعف التفاعل

---

(١٥) انظر: جواد علي، تاريخ العرب قبل الاسلام، القسم السياسي، ج ١ ـ ٤.
(١٦) انظر: عبد الرحمن بذوي، روح الحضارة العربية، والمصدر نفسه.
(١٧) انظر: بدوي، المصدر نفسه.

والاحتكاك بينها وبين القبائل العربية التي بقيت في جزيرة العرب، نظراً إلى بعد المسافات وصعوبة المواصلات في ذلك الحين - كلها أمور ساعدت على ابتعاد هذه الموجات عن الطابع العربي الأصيل، واللغة العربية الأصيلة.

أما القبائل العربية التي بقيت في جزيرة العرب، فقد بقيت محافظة على عروبتها، ووجدنا هذه القبائل الواضحة العروبة تندفع مرة أخرى من جزيرة العرب قبل الإسلام بعدة قرون، وتمتد إلى العراق والأردن وسوريا حيث قام حكم العرب الغساسنة في الشام، وحكم العرب المناذرة في العراق، وحكم العرب الأنباط في البتراء جنوب الأردن، كما قامت حضارة عربية في تدمر شمال بادية الشام. ولا زالت آثار هذه الحضارات باقية حتى اليوم.

أما في داخل الجزيرة العربية، فلم تكن القبائل العربية منعزلة بعضها عن بعض، بل، على العكس، عاشت تلك القبائل تختلط وتتفاعل وتتمازج معاً عن طريق الأسواق التجارية والأدبية التي كانت تنظّمها كسوق عكاظ والأيلة والأنبار والحيرة وغيرها، كما رأينا هذه القبائل تقترب من مفهوم الوحدة - ولو بشكل باعث جداً - قبل مجيء الاسلام بمدة، وقد تمثّل هذا الاقتراب بالأحلاف التي كانت تلك القبائل تعقدها بعضها مع بعض، كحلف الفضول، وحلف الأحلاف، وحلف الدم، كما تمثّل الاقتراب من مفهوم الوحدة بشكل أبرز في معركة ذي قار، حين اتحدت القبائل العربية لتخوض معركة ضارية ضد الفرس. وقد انتصر العرب في تلك المعركة، وبقيت تتردد في شعر العرب لمدة طويلة. وفيها قال أبو تمام:

أولاك بنو الأفضال لولا فعالهم
هلكن فلم يوجد لمكرمة عقب
لهم يوم ذي قار مضى وهو مفرد
وحيد من الأيام ليس له عقب
به علمت صهب الأعاجم أنه
به أعربت عن ذات أنفسها العرب

وحين انتصر قبل ذلك سيف بن ذي يزن على الأحباش، وطردهم من اليمن، عدّت القبائل العربية هذا النصر نصراً لجميع العرب، فجاءت وفود القبائل تهنئه من جهات جزيرة العرب كافة. على أننا يجب أن نذكر، أن هذه الأمثلة لا تقوم دليلاً كافياً على شعور العرب بالوحدة في الجاهلية وقبل ذلك، إلّا أنها كانت تمثل اتجاهاً أولياً وباهتاً نحو الوحدة التي تجسّدت بصورتها التامة عند مجيء الاسلام.

من هذه اللمحة الموجزة جداً نستنتج:

١ - أن غالبية الأقوام التي عاشت في وادي النيل والمغرب والهلال الخصيب منذ آلاف السنين، كانت كلها موجات عربية اندفعت من جزيرة العرب واستوطنت تلك الأجزاء في الوطن العربي.

٢ - ان حياة العرب لم تكن دوماً حياة بداوة وقبائل، بل كثيراً ما أقامت هذه القبائل ممالك

مستقرة وحضارات متقدمة، لا تزال آثارها باقية إلى اليوم.

٣ ـ ان الطابع العربي قبل مجيء الاسلام، لم يكن غريباً تماماً عن الأقوام التي كانت منتشرة في الوطن العربي، فبالإضافة إلى الموجات العربية القديمة التي أقامت حضارات وادي النيل والهلال الخصيب (والتي فقدت مع الزمن طابعها العربي إلى حد بعيد)، وجدنا موجات عربية صريحة العروبة تقيم في العراق وبلاد الشام، وتغذي بقايا الموجات العربية القديمة بالطابع العربي.

هذه الأمور كلها قد جعلت الوطن العربي هو الساحة الطبيعية لقبائل وموجات جزيرة العرب قبل الفتح العربي الكبير، مما ساعد على ذوبان تلك الأقوام في بوتقة العروبة ذوباناً تاماً حين جاء الفتح العربي.

ومضى التاريخ...

وفي القرن السابع الميلادي، رأينا القبائل العربية تندفع مرة أخرى من جزيرة العرب في أكبر وأقوى موجة عربية عرفها تاريخ هذه المنطقة. وكانت الموجة العربية في هذه المرة هي فيض العرب الأكبر، المادي والبشري والروحي، وقد جاء على يد محمد بن عبد الله محرر العرب وموحدهم الأكبر، وتمثل هذا الفيض برسالة الاسلام. في هذه الموجة، اتحدت القبائل العربية في جسم واحد وفي سبيل هدف واحد وانطلقت إلى العالم تبشر برسالة الإسلام التي جاءت بشمولها وايجابيتها وعمقها وابداعها وواقعيتها، تعبر تعبيراً صادقاً عن كوامن النفسية العربية. كانت رسالة ابداع ونهوض وسمو، جمعت بين مثالية الديانة المسيحية، وبين النظرة الواقعية التي تستهدف حل مشاكل الانسان واقامة المجتمع الذي يحقق له انسانيته، كانت رسالة قيم ومثل وأخلاق، استجابت للشخصية العربية وأعطتها أفضل منطق، كما شملت ونظمت بتعاليمها مختلف أوجه الحياة أفضل تنظيم وشمول في ذلك الحين...

وامتدت هذه الموجة العربية الجارفة حتى شملت جميع أرض الوطن العربي الذي انتشرت فيه الموجات العربية السابقة، كما امتدت حتى جنوبي فرنسا غرباً وشمالاً، وحتى الهند والصين شرقاً. وقد تميزت الموجة العربية الجديدة بثلاث مميزات أساسية، جعلتها تختلف اختلافاً نوعياً لا كمياً فقط عن الموجات العربية السابقة، كما كان لها أثر كبير في حياة الأمة العربية.

الميزة الأولى: إن الموجة العربية الكبرى التي جاءت مع الاسلام لم تكن في خروجها كمعظم الموجات السابقة، تستبدل أرضاً بأخرى، لضيق العيش، أو هرباً من خطر معين، أو حباً في المغامرة، وإنما كانت امتداداً منظماً، وفيضاً هادفاً؛ لقد خرجت تستبدل قيماً ومقاييس بأخرى وعادات وتقاليد بأخرى ونظماً ومفاهيم بأخرى، وكانت فيضاً تحركه دوافع روحية عميقة أمدتها بقوة كبيرة لم تتوفر لأي من الموجات السابقة.

الميزة الثانية: إن الموجة العربية التي اندفعت مع الاسلام كانت موجة شاملة امتدت حتى شملت كل الوطن العربي بحدوده الحالية، فلم تكن موجة جزئية كالموجات السابقة

تتركّز في وادي النيل أو ما بين النهرين، أو على أطراف العراق أو الشام، ولذلك فإن تأثيرها كان شاملاً لكل الوطن العربي، وانعكس كوحدة في كل الأرض العربية وفي كل الأقوام التي كانت تسكن الأرض العربية.

الميزة الثالثة: إن الموجة العربية التي جاءت مع الاسلام، أثّرت في الأقوام التي كانت تسكن الوطن العربي تأثيراً قومياً عميقاً، لا تأثيراً سياسياً فقط. فتمثلت اللغة العربية واللغات اليونانية واللاتينية والآرامية التي كانت تتكلمها تلك الأقوام تمثّلاً تاماً، واندثرت تلك اللغات المتفرقة لتحلّ محلها اللغة العربية الواحدة. وامتصت الموجة العربية الجديدة بقايا الموجات العربية القديمة التي كانت أقواماً غير متماسكة ذائبة في الحضارة الهيلينية والرومانية فصهرتها في البوتقة العربية، وطبعتها بالطابع العربي الأصيل المميز، فقضت بذلك قضاء تاماً على الخيوط التي كانت تربط هذه الأقوام بأصولها الفرعونية والآرامية والفينيقية من جهة، كما قضت على التأثير السطحي الذي أحدثه فيها الفرس واليونان والرومان من جهة ثانية، وذابت هذه الأقوام في الموجة العربية ذوباناً تاماً. وهكذا، كان تأثير الموجة العربية التي جاءت مع الاسلام، تأثيراً قومياً، قام على تفاعل عميق حي مع مختلف مظاهر حياة الأقوام التي كانت تسكن الوطن العربي، وغيّرها تغييراً جذرياً.

بهذه الميزات الثلاث اختلفت الموجة العربية الجديدة عن الموجات العربية السابقة التي انتشرت في الوطن العربي، كما اختلفت عن حكم الفرس واليونان والرومان الذي لم يستطع أن يؤثر في تلك الأقوام سوى من الناحية الادارية والسياسية والثقافية.

وقد اقتصر تأثير العرب القومي على الأقوام التي كانت تسكن الوطن العربي فقط، أما تأثيرهم في الأقوام خارج الوطن العربي، فقد اقتصر على اعطاء تعاليم الاسلام، ولم يكن تأثيراً قومياً. فلم يستطع العرب أن يذيبوا في البوتقة العربية سكان اسبانيا مثلا، غير أن الحكم العربي دام هناك طيلة سبعة قرون، كما لم يستطيعوا أن يذيبوا سكان فارس، ورأينا الموجة العربية تنحسر عن الأراضي التي امتدت إليها خارج حدود الوطن العربي، وتنحصر في الأرض العربية. والسبب في ذلك واضح، فإن الأقوام التي كانت تسكن في الأرض الخارجة عن الوطن العربي، كانت غريبة تماماً عن المربع العربي والشخصية العربية، وكان لها طابع حر خاص بها، فكان من الطبيعي أن تقاوم أية محاولة تقوم بها الموجة العربية للتأثير فيها قومياً واذابتها، ولذلك رأينا هذه الأقوام تحارب الحكم العربي، وتنفصل عنه حالما سنحت لها الفرصة. أما الأقوام التي كانت تسكن الوطن العربي، فلم تكن الموجة العربية غريبة عنها كل الغرابة في جوهرها، وقد رأينا كيف كان الوطن العربي مصبّ الموجات العربية المتلاحقة قبل الفتح العربي بزمن طويل، مما جعل هذه الأقوام مهيأة لأن تمتصّ امتصاصاً كاملاً من قبل الموجة العربية الجارفة.

ولا شك أن الموجة العربية التي جاءت مع الاسلام، تمثّل نقطة تحوّل كبيرة في تاريخ تطور القومية العربية.

ذلك لأن هذه الموجة عملت على مد الشخصية الجماعية للأمة العربية من نطاق جزيرة

العرب حتى شملت كل الوطن العربي بحدوده الحالية. وهكذا حملت هذه الموجة العربية معها في خروجها معالم قوميتها العربية التي تحدّدت في جزيرة العرب وطبعت بها كل الأقوام التي كانت تسكن الوطن العربي، بحيث أصبحت القومية العربية تشمل سكان المغرب العربي، ووادي النيل والهلال الخصيب إلى جانب سكان جزيرة العرب، وتبلورت الروابط القومية التي كانت تجمع قبائل الجزيرة العربية، كما امتدت هذه الروابط القومية العربية بحيث أصبح يتشارك بها كل سكان الوطن العربي، ويؤلفون بموجبها وحدة اجتماعية متميزة.

* * *

ومضت الأمة العربية خلال عهد الخلفاء الراشدين والأمويين تعمل على تجسيد قوميتها العربية في مجتمع واحد تتجمع فيه التجارب والمفاهيم التي اكتسبتها الأمة، وتتجسّد فيه إلى حد بعيد القيم والمقاييس العربية التي تطبع العرب بالكثير منها قبل الاسلام، والتي هذّبها وركّزها وطوّرها الاسلام، وكانت الميزة الكبرى للعصر الراشدي والعصر الأموي، من زاوية تطور القومية العربية، انهما وفّرا ـ عن طريق وحدة الحكم والتشريع ـ الجو اللازم، لكي يأخذ التأثير القومي للموجة العربية التي ابتدأ بالاسلام، مداه الواسع الفعّال في حياة سكان هذه البلاد في ذلك الحين.

وجاء الحكم العباسي بعد الأموي، وجاءت معه المرحلة التي نضجت فيها الشخصية العربية، وبدأت البذور التي رويت في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين تعطي ثمارها، فإذا القوى العربية الزاخرة التي حملت رسالة الاسلام قبل بضعة قرون تنفجر مرة أخرى بشكل جديد، بشكل نتاج حضاري ضخم وصل الحضارات العربية الأولى التي قامت على ضفاف النيل وفي ما بين النهرين وجنوب جزيرة العرب بالحضارات اليونانية والهندية والفارسية، بالحضارة العربية في العصر العباسي، كما مهّد لقيام النهضة في أوروبا في ما بعد.

فرأينا أدباً وفكراً وعلماً عربياً في موضوعه وشكله، ولم يترك العرب جانباً من جوانب الحياة ولا مجالاً من مجالات الابداع إلّا طرقوه وأبدعوا فيه أيّما ابداع، معبّرين بذلك عن أصالة عميقة وعبقرية فذّة.

وأية محاولة بسيطة للإطلاع على التراث العربي، تُظهر مدى التقدم الرائع الذي خطاه العرب[١٨].

ولسنا هنا بغافلين عن قول البعض بأن العرب إنما كانوا ناقلين للحضارة ومجرد حافظين لها، وكذلك لسنا بغافلين عن أثر الاستعمار وأعداء القومية العربية في ابتداع ونشر هذا الادعاء الكاذب، واغفال الأثر العربي لدى استعراضهم حضارة الانسان منذ بدئها حتى اليوم، مدّعين أن العرب أمة، (في ما إذا كانوا أمة!) لا أصالة لديها ولا عبقرية، وإن كل ما

---

(١٨) لا شك أنه كان للحكم الأموي بعض المساوىء. ولن نتطرق إليها هنا لأننا لسنا بصدد بحث التاريخ العربي مفصّلاً.

جاءت به لم يكن إلاّ نسخاً أنيقاً للحضارة اليونانية أو الرومانية أو الفارسية أو المندينة، قد تستحق الشكر عليه!

وحين لا يجدون مجالاً للتحايل على الحقيقة عندما تسطع واضحة بارزة، نجدهم يدّعون أن هذا وذاك من مظاهر العبقرية العربية إنما هو لفلان من علماء الغرب أو غيره.

ليس ذلك وحسب، وإنما نراهم يقولون إنه لو افتُرض جدلاً أن ثمة حضارة ذات أصالة وعبقرية وجدت في ظلال الحكم العربي، فإن ذلك كان بفضل العلماء غير العرب الذين لهم أصول فارسية أو هندية أو تركية أو ما شابه.

ولن نسهب في الرد على هذه المزاعم الكاذبة، فلقد بات واضحاً الهدف الذي يسعى إلى الوصول إليه أعداء القومية العربية، وهو أن العرب إنما هم مجموعة من البشر عاشت ويجب أن تعيش على هامش حضارة العالم والانسانية، وأنهم قوم لا أصالة لديهم ولا عبقرية ولا حتى مجرد تاريخ كما يُفهم التاريخ، وبالتالي فاستعمارهم خدمة للمدنية والانسانية، واغتصاب أرضهم وثرواتهم حق وواجب.

وكل انسان موضوعي النظرة يستطيع تبيّن خطل هذا الادعاء، وأنه تجنٍّ لا على العرب وتاريخهم وحسب، إنما على العلم والحقيقة.

إن مساهمة العرب في الحضارة وابداعهم العبقري في مختلف مجالاتها أمر واضح ظاهر. فلقد قام العرب بشرح الفلسفة الكلاسيكية وتوضيحها، فمهدوا بذلك وهيأوا العقول للتفكير العلمي الحديث، ولقد تعدوا الشرح إلى نسق جديد في الفلسفة في بعض ميادينها، واتجهوا في البحث عن الوجود اتجاهاً مستقلاً عن تأثرهم بالقرآن. وفي العلوم خطا العرب خطوات جبارة، فبرعوا في الرياضيات، وأوجدوا «الصفر» والاحصاء العشري، وهم من سمّى الجبر «جبراً» وأول من ألّف فيه بصورة علمية منظمة على يد محمد بن موسى الخوارزمي، الذي وضع هذا العلم[١٩].

ولولا العرب لما كان علم المثلثات على ما هو عليه الآن، ولا يخفى ما لهذا العلم من أثر في الاختراع والاكتشاف وفي تسهيل كثير من البحوث الطبيعية والهندسية والصناعية[٢٠].

وفي الفلك، نهض العرب نهضتهم المعروفة وأحدثوا فيه انقلاباً عميقاً جذرياً وساعدوا على تقدم الجغرافيا وأصلحوا الكثير من أخطاء بطليموس وكشفوا مناطق لم تكن معروفة في بعض القارات ووضعوا المؤلّفات الجغرافية النفيسة ووضحوها بالخرائط... وربطوا الجغرافيا بالفلك وسبقوا بذلك علماء اليوم[٢١].

---

(١٩) قدري حافظ طوقان، العلوم عند العرب.

(٢٠) المصدر نفسه.

(٢١) المصدر نفسه.

والعرب من أوائل واضعي أساس البحث العلمي، فأنشأوا المختبرات لاجراء التجارب، كما فعل جابر بن حيّان، ولقد سبق ابن الهيثم العالِم الغربي «بيكون» في معرفة الطريقة العلمية الحديثة وتطبيقها بطريقة أسلم، وقالوا الأخذ بالاستقراء والقياس والتمثيل وضرورة الاعتماد على الواقع الموجود على النحو المتبع في البحوث العلمية الحديثة، ولقد بلغ العرب في علم البصريات أعلى درجات، وثبت أن «كوبر نيكوس» أخذ معلوماته في علم الضوء من ابن الهيثم، وأثر هذا العالِم في هذا المجال لا يقل عن أثر نيوتن في الميكانيكا[٢٢].

أما في الكيمياء، فللعرب ابتكارات واضافات، ولقد كان لبحوث جابر بن حيان وبحوث غيره من كبار العلماء العرب في الكيمياء ضلع كبير في تكوين مدرسة كيميائية لا زال أثرها ظاهراً وواضحاً في الغرب. كما كان لهم دور كبير في الأمور الكيميائية النظرية والعمليات والتطبيقات والتحليل، وكانوا في الكثير منها معبّرين عن ابداع عبقري وأصالة فذّة، فلقد عرفوا التقطير والترشيح والتصعيد والتذويب والبلورة والتكليس. . . وهم أول من استحضر حامض الكبريت وحامض النتريك وماء الذهب والصودا الكاوية وكربونات البوتاسيوم وكربونات الصوديوم، وحصلوا على الزرنيخ والإثمد وغيرها من المركّبات التي تقوم عليها الصناعة الحديثة، وتستعمل في صناعة الصابون والورق والحرير والمتفجرات والأصبغة والسماد الصناعي[٢٣].

ولقد رفع العرب شأن الطب، ولهم الفضل في جعل الجراحة قسماً منفصلاً عن سائر أقسام الطب، وفي اكتشاف الدورة الدموية الصغرى والكبرى وفي انشاء المستشفيات، وفي التزام التصريح الشرعي لممارسة الطب والصيدلة[٢٤].

ولقد حارب علماء العرب التنجيم، وقالوا بإبطال الكيمياء القديمة، وأصرّوا على الرجوع إلى العقل والاعتماد على الأدلة العقلية[٢٥].

والعرب فوق ذلك، أول من لاحظ أن حوادث التاريخ مقيدة بقوانين طبيعية ثابتة، وأن باطن التاريخ ليس في واقع الأمر إلاّ نظرة وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها وعلم في كيفية حدوث الوقائع وأسبابها[٢٦].

وابن خلدون العربي، كان أول من قال بوجوب اتخاذ الاجتماع الانساني موضوعاً لعلم مستقل، وذهب إلى أن الأحوال الاجتماعية تتأتى من علل وأسباب. وقد أدرك هذا العالِم العربي الكبير قبل غيره من علماء أوروبا بعدة قرون إن هذه العلل والأسباب تعود في الدرجة

---

(٢٢) المصدر نفسه.

(٢٣) المصدر نفسه.

(٢٤) المصدر نفسه.

(٢٥) المصدر نفسه.

(٢٦) المصدر نفسه.

الأولى إلى طبيعة العمران أو طبيعة الاجتماع، وقد درسها دراسة مستفيضة خرج منها بكشف بعض القوانين المتعلقة بها[٢٧].

ونذكر من علماء العرب وأعلامهم الكندي والجاحظ وثابت بن قرّة والبتاني والرازي والفارابي والبوزجاني وابن يونس والزهراوي وابن سينا والبيروني وابن حزم الأندلسي وابن باجه والشريف الادريسي وابن طفيل وابن رشد والخازن وابن النفيس وابن البيطار ونصير الدين الطوسي وابن خلدون. . .[٢٨].

فهل كان العرب مجرد مقلدين أو ناقلين أو حافظين؟ صحيح أنهم أخذوا عن الشعوب التي كانت لها حضارة آنذاك وقبله، ونقلوا آثار هذه الشعوب الحضارية إلى العربية والحياة العربية وحفظوها ومن ثم أعطوها لسائر الأمم، ولكن الأمر الذي يبقى صحيحاً هو أن ما من حضارة راقية قامت في العالم، بمعزل عن الحضارات التي سبقتها أو رافقتها. والعرب لم يكتفوا بنقل الحضارات وحفظها، وإنما هضموها وأبدعوا أشياء عديدة جداً، كما سبق وذكرنا، تعبر عن عبقريتهم وأصالتهم العربية.

أما بالنسبة إلى العلماء العرب الذين جاؤوا من أصول غير عربية، فإننا نتساءل:

ما هي الشخصية التي كانت لدى هؤلاء العلماء غير العرب في أصولهم الجنسية، وفي أية بيئة وأي جو عاشوا، وبأي لغة كتبوا وأبدعوا؟

ألم تكن شخصيتهم عربية؟ ألم يعيشوا في المجتمع العربي والبيئة العربية؟ ألم يكتبوا باللغة العربية ويبدعوا باللسان العربي؟

ولماذا تراها هذه العبقريات لم توجد ولم تتفجر وتبدع في غير البيئة العربية؟ لماذا لم تظهر في أحضان القومية الفارسية أو الأخرى الرومانية أو اليونانية؟

فالعبقري الفارسي، في أصوله مثلاً، الذي أبدع في أحضان القومية العربية، والذي لم يظهر مثيل له في الفترة الزمنية نفسها في أحضان القومية الفارسية، إنما أبدع لا لأنه فارسي في أصوله الجنسية، وإنما لكونه تمثّل الشخصية العربية وغزت روحه القومية العربية التي كانت في أوجها آنذاك. والأمر نفسه ينطبق على أي عالم عربي، لم يكن عربياً في أصوله الجنسية!

وفي الوقت الذي كان فيه العرب يبدعون الحضارة ويشيدون صروح المدنية والرقي، كان الفرنسيون والبريطانيون يعيشون في ظلمات كثيرة من الجهل والتأخر والانحطاط. . . وفي الوقت الذي كان فيه العلماء العرب يدرسون ويبحثون وينقبون ويخترعون ويبدعون، كان ملوك الفرنجة أميين لا يعرفون القراءة والكتابة، وكان الأتراك قبائل هائمة في صحارى

---

(٢٧) المصدر نفسه.

(٢٨) للتوسع في هذا المجال، انظر: المصدر نفسه؛ مجموعة «الثأر»، نشرة، هيئة مقاومة الصلح مع اسرائيل؛ قدري حافظ طوقان، الخالدون العرب، وغرونيباوم، حضارة الإسلام، ترجمة عبد العزيز جاويد.

منغولية وآسيا الوسطى لا تعرف لها مستقراً. . . وكانت الكثير من الشعوب الأخرى لا تعرف القراءة والكتابة ولا تدرك من القيم والأخلاق إلا قوانين الغاب.

ورأينا قائلاً في أوروبا، وقد أدرك مركب النقص الذي ساد شعبه تجاه العرب فيقول: متى تدركون أن العرب ليسوا إلاّ مجرد شعب كسائر الشعوب نستطيع الوقوف أمامه وقتاله؟

ونحن إذ نستعرض بإيجاز كبير معالم النهضة العربية الماضية، لا نوردها تعالياً أو غروراً، وإنما اقراراً لحقيقة، ومقارنة بين وضع العرب اليوم وما فيه من جمود، ووضع العرب بالأمس وما كان فيه من انطلاق.

ولكن هل بقي العرب موحدين ذوي حضارة ومدنية؟

التاريخ يقول لا.

فإن الفرس الذي استعان بهم العباسيون في بادىء الأمر لتقويض حكم الأمويين كانوا قد تسرّبوا تسرّباً كبيراً في الجسم العربي، كما تبعهم في ذلك الأتراك أيضاً. ولم يقتصر هذا التسرّب على الجانب السياسي من المجتمع العربي، بل امتد إلى كثير من مظاهر الحياة العربية. ورافق هذا التسرب، اختلال مقاييس الحياة العربية مما أدى في النهاية إلى انهيار الدولة العباسية. ولهذا جاء العصر العباسي، عصراً ذا طبيعة مزدوجة، فهو من جهة العصر الذي بلغ فيه الفرس والأتراك إلى جسم المجتمع العربي، تسرباً بدأ جزئياً وضعيفاً واشتد تدريجياً حتى أطاح بالحكم العربي العباسي[٢٩].

ويتسرب الفرس والأتراك إلى جسم الأمة العربية، واختلال مقاييس الحياة العربية، ويفقدان العرب روحيتهم الثورية وبداية تفكك المجتمع العربي، أخذت القومية العربية تنتقل من واقع التجسيد إلى واقع الضمور وبدأت الأمة العربية تسير في طريق الانحطاط.

وهكذا نكون قد مررنا مروراً سريعاً على المرحلة الأولى التي تشكلت فيها المعالم الأولية للقومية العربية، كما استعرضنا استعراضاً موجزاً فترتين هامتين من فترات المرحلة الثانية لنمو وتطور وتبلور القومية العربية في التاريخ منذ تشكّلها حتى الفتح العربي، وثم من الفتح العربي حتى عصور الانحطاط. وقد رأينا أن الطابع العام لهاتين الفترتين كان طابع الانتاج والإبداع والعطاء، كما استطاعت الأمة العربية أن تجسّد قوميتها العربية إلى حد بعيد. وبإشرافنا على عصور الانحطاط التي دخلت فيها الأمة العربية بعد سقوط الدولة العباسية نكون قد أشرفنا على الفترة الثالثة من المرحلة الثانية لنمو وتطور وتبلور القومية العربية، وطابع هذه الفترة الثالثة هو طابع الجمود والتفكك إلى حد بعيد.

---

(٢٩) نحن هنا لا نُرجع سبب ضعف الدولة العباسية إلى الفرس والأتراك فقط، ولا شك في أن العرب أنفسهم مسؤولون عن ذلك أيضاً.

ثالثاً: القومية العربية في نشوئها وتطوّرها منذ عصور الانحطاط حتى الحاضر

تتميز هذه الفترة من حياة الأمة العربية بدخول عاملين إلى الحياة العربية، كان لهما الأثر الأول في تفكيك الحياة القومية العربية ودفع الأمة في طريق الانحطاط، وما ولّد هذا الانحطاط بدوره من مشاكل أساسية نلمسها اليوم بوضوح في واقعنا العربي.

هذان العاملان هما: التجزئة والاستعمار.

التجزئة: فبدخول التجزئة بدأ المجتمع العربي يفقد المحور الأساسي الذي يقوم عليه، وهو الوحدة[٣٠]، وأخذ ينتقل من حالة التماسك التي تتجمع فيها امكانات الأمة البشرية والمادية والروحية في جبهة واحدة ويد واحدة، وتسير فيها الحياة العربية إلى حد ما بشكل متكامل، إلى حالة التفكك التي تتبعثر فيها هذه الامكانات في عدة جبهات متفرقة، وتتعثر فيها الحياة العربية بشكل متنافر متضارب.

أخذت التجزئة تتسرب إلى المجتمع العربي في أواخر الدولة العباسية، حين تسرّبت إليها السيطرة الأجنبية ولم تعد قادرة على حفظ تماسك الدولة العربية الواحدة الممتدة. وتمثلت هذه التجزئة بالدولة الانفصالية التي بدأت تنشق عن الدولة الأم وتستقل بالحكم. كدولة الادراسة التي قامت في جزء من مراكش في القرن التاسع للميلاد، والامارات البربرية التي قامت في الجزائر، ودولة الأغالبة في ليبيا وتونس، ودولة الموحدين التي شملت كل المغرب العربي من ليبيا إلى مراكش، ودولة الطولونيين في مصر وجزء من سوريا، ودولة الحمدانيين في شمال سوريا والعراق، ودولة الفاطميين التي قامت في مصر وشملت كل الوطن العربي عدا العراق وشبه جزيرة العرب، ودولة الأيوبيين في مصر وجزء من سوريا، وغيرها.

ولن نستعرض هنا بالتفصيل نمو التجزئة في الوطن العربي، يكفي أن نشير إلى أنه بالرغم من أنه لم تقم بعد الدولة العباسية دولة عربية قوية لها الامتداد نفسه، فتشمل كل الوطن العربي، وتنسق مرافق الحياة كافة في جبهة واحدة، إلّا أن التجزئة في تلك الفترة لم تكن من حيث عمقها وتأثيرها كالتجزئة التي أوجدها الاستعمار الغربي فاقتصرت على التجزئة السياسية المحدودة، كما لم تكن من حيث امتدادها وشمولها بالمدى الذي نراه اليوم، وواضح في التاريخ أن هذه الدول كانت دوماً تجمع عدة أجزاء عربية في سلطة واحدة.

وكان من الطبيعي أن تؤدي التجزئة وفقدان الجبهة العربية الواحدة، وما يخلقه هذا الوضع من تفكك وضعف[٣١]، إلى وقوع المجتمع العربي فريسة سهلة بيد الاستعمار.

---

(٣٠) لا بد أن نلاحظ أن الوحدة العربية لم تكن متوفرة في عهد الراشدين والأمويين والعباسيين بالشكل الذي نفهمه ونريده للوحدة العربية اليوم. ولا بد أن نأخذ عامل الزمن بعين الاعتبار.

(٣١) إن التجزئة لم تكن العامل الوحيد في الضعف الذي أصاب المجتمع العربي في ذلك الحين، بل لعل التجزئة جاءت انعكاساً لضعف سابق.

الاستعمار: وبدخول الاستعمار بدأت الحياة القومية العربية تفقد صفة أساسية جوهرية من مستلزمات وجودها وانطلاقها، وهي الاستقلال في الشخصية القومية، وأخذت تنتقل من حياة الحرية التي تهيّىء للانتاج والابداع، إلى حياة الكبت والقهر التي تؤدي إلى الجمود.

ولكن الاستعمار الذي دخل الوطن العربي في بادىء الأمر، أي قبل مجيء الاستعمار التركي العثماني، لم يكن يحمل المعنى والشكل نفسهما الذي نفهم بهما الاستعمار اليوم. وإنما كان أقرب إلى نوع من السيطرة الأجنبية التي لم تؤثر في الحياة القومية العربية ذلك التأثير العميق الذي تركه الاستعمار العثماني والغربي في ما بعد.

بدأت هذه السيطرة بالبويهيين الذين تسرّبوا إلى الدولة العباسية ودام تأثيرهم فيها من القرن العاشر ميلادي إلى القرن الحادي عشر، ومن ثم السلاجقة الذين امتد تأثيرهم في العراق وقسم من شبه جزيرة العرب حتى منتصف القرن الثالث عشر، وأعقب هؤلاء غزو التتر الذي اقتحموا العراق بقيادة هولاكو، فأسقطوا الدولة العباسية، ودمّروا معالم الحضارة العربية في بغداد تدميراً يكاد يكون كلياً، ولم يتمكّنوا من مد نفوذهم خارج العراق، فظلّوا يحكمونها إلى أن جاء الاستعمار التركي العثماني في أوائل القرن السادس عشر. وأما في مصر وسوريا والحجاز وفلسطين، فقد كانت السيطرة للمماليك البحرية والمماليك الأتراك حتى الاستعمار العثماني أيضاً[٣٢]. وأما المغرب العربي، فلم تمتد إليه هذه السيطرة الأجنبية، وبقي مستقلاً تتناوب حكمه أسر عربية متتالية.

وفي أوائل القرن السادس عشر دخل الاستعمار التركي العثماني، وهنا بدأت السيطرة الأجنبية تتخذ شكلاً آخر يختلف عن السابق، فقد تميز هذا الاستعمار عن السيطرة الأجنبية السابقة بنقطتين هامتين:

النقطة الأولى: إن سيطرته كانت شاملة بشكل موحد تقريباً لكل أجزاء الوطن العربي. فلم تنحصر كالسابق في العراق أو مصر وسوريا بل امتدت حتى شملت كل الأرض العربية، وبدأت تتلاشى إلى حد كبير تلك الدويلات التي قامت قبل مجيئه. ولكن الاستعمار العثماني وإن كان قد قضى نوعاً ما على التجزئة السطحية التي تمثلت بالدول الانفصالية المتلاحقة، إلاّ أن طبيعة هذا الاستعمار، والأساليب التي اتبعها في حكم الوطن العربي، لم تكن أبداً لتساعد على قيام وحدة عربية حقيقية. لأن هذه الوحدة تقوم أول ما تقوم على الاستقلال في الشخصية القومية، ولهذا جاءت تلك الوحدة، وحدة سياسية زائفة فرضتها التنظيمات الادارية العثمانية لضمان ربط الوطن العربي ربطاً محكماً بالامبراطورية العثمانية. ولا شك أن وحدة البيئة العربية هي التي دفعت العثمانيين إلى النظر إلى الوطن العربي كوحدة من حيث طرق تثبيت حكمهم فيه، ولكن تلك الوحدة، لم تكن وحدة قومية عربية منبثقة من الشعب العربي، بل كانت وحدة ادارية مفروضة من العثمانيين لتحقيق تماسك الامبراطورية.

---

(٣٢) طبعاً باستثناء حكم الدول العربية.

والنقطة الثانية: إن سيطرة الاستعمار العثماني، لم تكن فقط أوسع شمولاً، وإنما كانت أعمق أثراً في الحياة القومية العربية نظراً إلى الأساليب التي اتبعها العثمانيون لدفع المجتمع العربي في طريق الانحطاط ضماناً لبقاء سيطرتهم، وقد قامت هذه الأساليب على ثلاث نواح:

- **الدين الاسلامي**: فقد استغل العثمانيون الدين الاسلامي وسيلة لتحقيق مآربهم وترسيخ دعائم امبراطوريتهم، وكانت الخلافة الاسلامية في ذلك الحين قد انتقلت إلى سلاطين آل عثمان، فراحوا يعملون على استقطاب العرب حول شخصية السلطان العثماني باسم خليفة المسلمين وما له من شخصية روحية معنوية، كما عملوا على تثبيت ركائز استعمارهم البغيض، باسم الدين الواحد المشترك الذي يجمع غالبية العرب والعثمانيين، ولا شك أن تصرفاتهم تجاه العرب كانت تتنافى مع هذا التظاهر المفضوح، ولكنهم استطاعوا أن يخدعوا البعض وأن يخدّروا لفترة الشعور القومي العربي.

- **الظلم الاجتماعي**: إن فساد الأنظمة الاقتصادية وإجحافها جعلت هذه الفترة من حياة الأمة العربية من أقسى الفترات وآلمها، ومن أكثر فترات التاريخ العربي جموداً ونضوباً.

وقد تمثّل هذا الظلم الاجتماعي بالاقطاع الواسع، والالتزام في جباية الضرائب، إذ لجأ العثمانيون إلى منح الاقطاعيات الكبيرة للضباط الذين كانوا يخدمون في الجيش العثماني، أو للولاة والباشوات الذين كانوا يتولون حماية مصالح الامبراطورية في الوطن العربي. وكانت هذه الأراضي تصادر بالقوة من الفلاحين وأصحابها الأصليين، لتعطى إلى هؤلاء الاقطاعيين الذين كانوا أبعد ما يكون عن فهم الشعب ومصالحه وآلامه وأهدافه. ورأينا الفرد العربي الذي اعتاد الحرية يشدّ بقيود الاقطاع الثقيلة إلى عبودية الأرض مما يعيد إلى الأذهان عهود الاقطاع في أوروبا في القرون الوسطى، وكان من الطبيعي أن ينتشر الفقر، وتنحط الحياة القومية العربية، لأن هذه الحياة وحدة متماسكة بأوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ورافق انتشار الاقطاع الكبير والفقر، نظام الالتزام في جباية الضرائب، فكان الوالي أو الحاكم المكلف بالجباية يلتزم بتقديم مبلغ معين إلى الامبراطورية كضريبة، وكان بدوره يفرض على الشعب، والفلاحين بصورة خاصة، الضريبة التي يشاء، فيعطي السلطان ما التزم به ويحتفظ بالباقي. ولم تكن هذه الضرائب المفروضة تُقدَّر حسب امكانات الفرد، بل حسبما يرى ملتزمو الجباية، وكان على الشعب أن يدفع لا أن يناقش مهما كانت ظروفه. وقد جاءت تلك الفترة نتيجة هذه الأوضاع محمّلة بأقسى أنواع الظلم الاجتماعي الذي يتنافى مع أبسط مفاهيم العدالة، وكان من الطبيعي أن يؤثر ذلك بدوره في الحياة القومية عامة.

- **الفساد العام وحملات التجهيل والتتريك**: ورافق هذا الظلم الاجتماعي البشع فساد في الادارة وفقدان في الاستقرار. فقد لجأ العثمانيون لضمان سيطرتهم، إلى تغيير الولاة والحكام بشكل دائم، ومتلاحق، لكي لا يتيحوا لهؤلاء الولاة المجال لأن يثبّتوا أقدامهم في الحكم ويستقلوا عن الامبراطورية. كما عملوا على ترسيخ العادات والتقاليد البالية الجامدة، ونمو الخرافات والأساطير والشعوذة، وفرضوا الحجاب على المرأة ورسموا سياسة محكمة لنشر الأمية حتى عمّ البلاد جهل مطبق. ولم يكتفوا بذلك، بل بدأوا في أواخر عهد الامبراطورية

يغزون أسس الوجود القومي العربي، فقاموا بحملات واسعة لتتريك العرب بالقوة، بمحاولة طمس اللغة العربية ونشر اللغة التركية وإجبار العرب على تعلّمها، وجعلها اللغة الرسمية في الوطن العربي.

ومن أراد أن يتعلّم ففي معاهد الامبراطورية العثمانية، ومن أراد أن يتكلم فليتكلم باللغة التركية. ومن أراد أن يتعلم اللغة العربية فليتعلم قواعدها باللغة التركية. وكبتوا الشعور القومي العربي بقسوة متناهية، وأقاموا المشانق في الشوارع، وجنّدوا الشعب العربي قسراً في الجيوش التي كانوا يوجهونها لرد الحملات عن الامبراطورية العثمانية...

ومن الطبيعي أن يرافق كل ذلك الانحطاط الذي امتد إلى مختلف مرافق الحياة العربية، انحطاط فكري شبه عام، فقد أسدلت هذه القيود التي فرضها الأتراك على العقل العربي ستاراً كثيفاً من الجمود أفقده حيويته وانطلاقه. ومن يستعرض مظاهر الحياة الفكرية في تلك الأوقات يلمس بوضوح الهوّة التي انحدر إليها العقل العربي. فإذا الشعر العربي الخصيب يصبح كلمات مصفوفة لا معنى لها وحيلاً لفظية لا جوهرة فيها، وإذا النثر العربي يصبح جملاً جوفاء لا فكرة فيها، واختفت من حياة العرب تلك الأصالة الفكرية والعلمية والأدبية التي رأيناها تعبّر عن نفسها في فترات عديدة من تاريخهم الطويل.

وجاء القرن التاسع عشر، ورأينا القومية العربية التي حاول الأتراك محوها بتشويه جوهر الدين الاسلامي، وتدعيم الظلم الاجتماعي وحملات التجهيل والتتريك، تتململ في واقعها الفاسد تحاول الانطلاق من حيّز الانزواء والجمود إلى حيّز التجسيد، ورأينا الشعب العربي يحاول النهوض لإزاحة الاستعمار العثماني المتداعي... ومضت هذه المحاولة تشق طريقها ببطء. فابتدأت سلسلة من الحركات الاستقلالية كحركات الأمير بشير الشهابي والجزار وضاهر العمر، ورأينا دولة تحاول أن تنفض عنها جمود الاستعمار العثماني تقوم في مصر، وأخرى في الجزائر.

ولكن في الوقت نفسه الذي بدأت القومية العربية تتململ ضد العثمانيين، أخذت قوى استعمارية جديدة تتألب وتدخل الميدان، وابتدأت بحملة نابليون على مصر، ومحاولة بريطانيا غزو الشواطىء الجنوبية لجزيرة العرب.

ومضت القوى الثلاث تتصارع، الشعب العربي من جهة، والاستعمار العثماني من جهة ثانية، والاستعمار الانكلو- فرنسي من جهة ثالثة، ولم يستطع الاستعمار العثماني الوقوف أمام الاستعمار الغربي، فبدأ يتراجع تدريجياً ويخلي الميدان للصراع بين الشعب العربي الذي أنهكه هذا الاستعمار، وبين الاستعمار الجديد.

وتمكّنت فرنسا من احتلال الجزائر عام ١٨٣٠ بعد ثورات دامية[٣٣] وكانت بريطانيا قد

---

(٣٣) للتوسع انظر: علّال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، ومنشورات حزب الشعب الجزائري.

سبقتها إلى احتلال عدن وما يجاورها[٣٤]؛ ولم تحلّ نهاية القرن التاسع عشر إلاّ وكانت مصر والسودان في قبضة بريطانيا التي بدأت تتطلع إلى احتلال فلسطين لضمان سيطرتها على مصر، واحتلال العراق لضمان سيطرتها على جنوب وشرق جزيرة العرب. ووقعت تونس بيد فرنسا التي ابتدأت كذلك تتطلع إلى مراكش، وأعقب ذلك احتلال ايطاليا ليبيا عام ١٩١١، وفرنسا مراكش بمساعدة اسبانيا عام ١٩١٢، وبعد الحرب العالمية الأولى وانهزام تركيا وانسحابها أمام قوات الثورة العربية الكبرى[٣٥] وقوات فرنسا وبريطانيا، احتلت بريطانيا بموجب معاهدة «سايكس ـ بيكو»، فلسطين وشرق الأردن والعراق، واحتلت فرنسا سوريا ولبنان[٣٦]، ولم تمض على الحرب العالمية الأولى سنوات معدودة، إلاّ وكان الوطن العربي مستعمراً من أقصاه إلى أقصاه عدا الحجاز ونجد واليمن.

وهكذا خرج الاستعمار التركي العثماني ليحلّ محله مباشرة الاستعمار الغربي، ولم تسنح للشعب العربي فرصة التقاط أنفاسه. وابتدأ الاستعمار الغربي يعمل مجدداً على دفع الأمة العربية في طريق الانحطاط من حيث انتهى الاستعمار العثماني بعد أن استفاد من تجارب هذا الأخير وابتكر أساليب جديدة. ولن نستعرض هنا تاريخ الاستعمار الغربي في الوطن العربي، ولكن يهمنا أن نشير إلى العوامل التي ولّدت ورافقت وغذّت تثبيت سيطرته في الوطن العربي وإلى مظاهر الانحطاط الجديدة التي خلقها هذا الاستعمار وغرسها في جسم المجتمع العربي.

ولا شك أن أول هذه العوامل التي سهلت مجيء الاستعمار الغربي وغذّته هي مختلف عوامل ومظاهر الانحطاط التي ورثتها الأمة العربية عن عهود الاستعمار العثماني الطويل، مما جعلها تقع فريسة سهلة بين براثن الاستعمار الغربي. فهذا الاستعمار جاء نتيجة طبيعية للفساد القاتل الذي كان يسود الحياة القومية العربية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، والجمود العام الذي كان يقيّد الأمة العربية.

---

(٣٤) للتوسع انظر: محمد كمال عبد الحميد، الاستعمار البريطاني في جنوب الجزيرة العربية.

(٣٥) الثورة العربية الكبرى التي انفجرت عام ١٩١٦ بقيادة «حركة العربية الفتاة» والشريف حسين مستهدفة اقامة دولة عربية واحدة تضم الهلال الخصيب وشبه جزيرة العرب عدا الخليج العربي والجنوب العربي بما فيه اليمن. وكان الشريف حسين قد اتفق مع بريطانيا قبل قيام الثورة، على أن يتعاون العرب مع «الحلفاء» على طرد تركيا، شريطة أن يعترف الحلفاء بعد انتهاء الحرب، بحق العرب في الاستقلال وإقامة الدولة العربية الموحدة المحددة سابقاً. وقد عُرف هذا الاتفاق بين الشريف حسين وبريطانيا بمراسلات «حسين مكماهون» وقد ظن العرب حينذاك، أن مساعدة الحلفاء على طرد تركيا سيكون فرصة سانحة للتحرر من نير الاستعمار التركي واقامة دولة عربية واحدة.

ولكن في الوقت نفسه الذي كانت بريطانيا تتفاوض فيه مع الشريف حسين على دعم أهداف العرب مقابل دخولهم الحرب ضد تركيا كانت توقّع في باريس معاهدة استعمارية سرية بين سايكس الانكليزي وبيكو الفرنسي، عرفت باسم معاهدة «سايكس ـ بيكو» ونصت على احلال الاستعمار الانكليزي ـ الفرنسي محل الاستعمار التركي، وتجزئة الأرض العربية، فتأخذ بريطانيا العراق وفلسطين والأردن، وفرنسا سوريا ولبنان. واتضح أن اتفاق بريطانيا مع حسين لم يكن إلاّ خدعة استعمارية لإثارة العرب ضد تركيا.

(٣٦) للتوسع انظر: جورج انطونيوس، يقظة العرب.

ولكن هذا لم يكن كل شيء. . .

فكما اختلف الاستعمار العثماني ـ من حيث عمق تأثيره ـ عن السيطرة الأجنبية التي تسرّبت إلى المجتمع العربي في أواخر الدولة العباسية، فكذلك اختلف الاستعمار الغربي ـ من حيث عمق تأثيره ـ عن الاستعمار العثماني مستنداً في ذلك إلى ناحيتين:

الناحية الأولى: هي المحافظة محافظة تامة على جميع معالم الانحطاط التي زرعها الاستعمار العثماني في جسم المجتمع العربي، مما جعل الانحطاط الذي خيّم على الحياة القومية العربية في عهد الاستعمار الغربي مجرد امتداد للانحطاط الذي كانت عليه في عهد العثمانيين. فكما عمل العثمانيون من قبل على تخدير الشعور القومي العربي باسم الدين الواحد الذي يجمعهم مع العرب، عمل الفرنسيون والبريطانيون على تخدير هذا الشعور بنشر الثقافة الغربية والتوجيه الغربي والتربية الغربية[٣٧]. وكما حاول العثمانيون من قبل تتريك العرب بطمس اللغة العربية وغيرها، عمل الفرنسيون على فرنسة العرب بإحلال اللغة الفرنسية محل العربية، ومحاولة القضاء على مظاهر العروبة بفرض الطابع الفرنسي. وأبقى الاستعمار الغربي الأوضاع والأنظمة الاقتصادية على ما كانت عليه من قبل. فاستبدل الفرنسيون في المغرب والجزائر بصورة خاصة، الاقطاع العثماني ـ العربي بالاقطاع الفرنسي. كما بقي الاقطاع يسود الأجزاء الأخرى في الوطن العربي[٣٨] وحلّت الشركات الاقتصادية الاستعمارية محل الالتزام في جباية الضرائب وراحت تستنزف الثروة العربية التي كان يستنزفها الأتراك والولاة، وعملت على منع أية نهضة اقتصادية في الوطن لتظل الأرض العربية مصدر خامات لصناعة الغرب وأسواقاً لمنتجاته. وبقيت الأمية هي الطابع العام للمجتمع العربي بالرغم من محاولة نشر الثقافة الغربية. كما عمل الاستعمار على ترسيخ العادات والتقاليد البالية الجامدة وطمس القيم والمقاييس العربية الصحيحة وبث روح الانهزامية والتخاذل، وتثبيت الوضع القبلي الذي يجمّد بنية المجتمع، وبكلمة، لم يحدث أي تغيير يذكر في طابع الحياة القومية العربية، إلّا في بعض النواحي التي توجبها مصلحة الاستعمار.

والناحية الثانية: إن الاستعمار الغربي كان أكثر حنكة من الاستعمار العثماني، فوضع يده على أخطر عامل يمكن أن يفقد الكيان العربي تماسكه والحياة القومية تجانسها واتساقها، وأسند إليه تثبيت دعائمه.

وهذا العامل هو: التجزئة.

فلقد عرف الاستعمار الغربي معرفة واضحة أن التجزئة التي تجعل العرب يعيشون مفككين متناثرين في دويلات وكيانات هزيلة، هي السند الأول لبقائه وبقاء سيطرته، وأن

---

(٣٧) إن المستعمر الغربي لم ينشر الثقافة الغربية بما فيها من رقي وتقدم ومعرفة، بقدر ما كان ينشر من هذه الثقافة ما يساعده على تثبيت أقدامه والتقرّب إلى العرب.

(٣٨) لا شك في أن الإقطاع في الوقت الحاضر أضيق حدوداً مما كان عليه في عهد الاستعمار العثماني نظراً لما حدث في المجتمع العربي من تطور ولو ضئيل في هذه الفترة.

التجزئة هي معين ضعف لا ينضب للعرب ومعين قوة لا ينضب للاستعمار. واستغل معرفته هذه إلى أقصى الحدود. فسعى أولاً إلى تجزئة الأرض العربية في منطقة الهلال الخصيب، بأن أوجد خمس دويلات مستقلة قائمة بذاتها هي: سوريا ولبنان وفلسطين والأردن والعراق، لها حدودها الجغرافية والسياسية الجديدة، ولها حكوماتها وجنسياتها الجديدة التي لم تكن موجودة في عهد الاستعمار العثماني. وكان قد قام بعملية مماثلة قبل ذلك في جنوب جزيرة العرب، حيث أوجد عدداً كبيراً من الكيانات الصغيرة التي لا يمكننا حتى أن نطلق عليها اسم دويلات. وبعد أن اصطنع هذه الحدود والكيانات في جنوب الجزيرة والهلال الخصيب راح يعمل على عزل أجزاء الوطن العربي عن بعضها عزلاً تاماً، فضربت فرنسا نطاقاً حديدياً حول المغرب العربي لعزله عن المشرق العربي، ثم راحت تعمل على عزل أقطار المغرب نفسها، تونس والجزائر ومراكش بعضها عن بعض، وضربت بريطانيا نطاقاً حول وادي النيل، لعزله عن جزيرة العرب والهلال الخصيب من جهة، والمغرب العربي من جهة ثانية[٣٩]، ثم عملت على عزل مصر عن السودان.

ولكن هذه التجزئة الجغرافية السياسية، لا يمكن أن تثبت أمام الشعور العربي حين يتجه إلى الوحدة بشكل قوي، وقد عرف الاستعمار الغربي هذه الحقيقة، فبدأ يعمل على تجزئة مظاهر الحياة القومية العربية كافة بشكل شامل.

فأتبع التجزئة السياسية بتجزئة اقتصادية حصرت الثروة العربية في حدود الكيانات القائمة، ليسهل عليه استغلالها أولاً، وليضع تلك الكيانات تحت رحمة اقتصاده ثانياً، واتبع ذلك بتجزئة فكرية دعمها بالبرامج الثقافية التي وضعتها الثقافة الغربية. ثم أقدم على أخطر خطوة في هذه السياسة، فحاول أن يتبع التجزئة الجغرافية السياسية الاقتصادية الفكرية بتجزئة نفسية أو قومية عن طريق النزعات الاقليمية التي خلقها، أو التي مهّد لوجودها بعمله على كبت الوعي القومي، كالنزعة الاقليمية الفرعونية في مصر، والنزعة الاقليمية القومية السورية في الهلال الخصيب، والنزعة الاقليمية البربرية في مراكش، والآشورية في شمال سوريا والعراق، والنزعة القومية اللبنانية، والنزعة الزنجية في جنوب السودان.

وبعد أن ضمن انعزالية الأجزاء العربية بعضها عن بعض، راح يعمل على تجزئة هذه الأقطار نفسها. بالعصبيات الطائفية، والنعرات المذهبية التي خلقها أو غذاها في نفوس الشعب عن طريق الارساليات الدينية التبشيرية، والمعاهد الثقافية الأجنبية.

وهكذا جاءت معالم الحياة القومية العربية قبل عام النكبة وقيام دولة اسرائيل عام ١٩٤٨، حياة تحمل الانحطاط السياسي والاقتصادي والاجتماعي العام الموروث إلى حد بعيد عن الاستعمار العثماني والغربي، وحياة تحمل التجزئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية الموروثة إلى حد بعيد عن الاستعمار الغربي.

وهكذا جاء الحاضر العربي الفاسد امتداداً للماضي العربي الفاسد، حاضراً يسيطر عليه

---

(٣٩) وكانت هذه المحاولة قد ابتدأت منذ عهد العثمانيين.

الاستعمار ويمنعه من التطور والتجدّد والانطلاق، وتخيّم عليه التجزئة فتمزّق وحدته، وتبعثر امكاناته، وتغذي هذا الوضع الشاذ الذي يتنافى وطبيعة الوجود القومي العربي الواحد، والذي يعيش الشعب العربي في ظله في أكثر من ثلاثين كياناً سياسياً، لكل منها حدوده وسياسته واقتصاده. وينتشر فيه الاقطاع البغيض والرأسمالية الجشعة مما يهدر امكانات الأفراد ويتنافى والعدالة القومية وتسود فيه عادات وتقاليد بالية جامدة تقتل حركية الأمة، وقيم ومقاييس فقدت جوهرها العربي الأصيل، وتتفشى فيه الأمية والطائفية والقبلية.

هكذا كان الحاضر العربي قبل النكبة وقيام دولة اسرائيل، فليس غريباً إذن أن تقوم دولة اسرائيل، بل لعل الغريب ألاّ تقوم في ظل هذا الواقع العربي.

فالنكبة لم تكن إلاّ انعكاساً طبيعياً لوضع المجتمع العربي، وقد جاءت تعبّر تعبيراً صادقاً صريحاً عن ذروة السلبية والانحطاط اللذين وصل إليها هذا المجتمع.

ولكن النكبة كانت حدثاً خطيراً في تاريخ تطور القومية العربية في هذه الفترة من تاريخها.

إذ إن نكبة العرب في فلسطين عام ١٩٤٨، قد حملت في ثناياها دلائل خطيرة، وجمعت في جوانبها معاني عديدة عميقة يجدر بنا أن نتأملها بتفكير عميق، إذ كثيراً ما يضيع احساسنا بمعناها في رتابة الجو الذي يخلقه الحدث حين يطول بقاؤه، ويغيب شعورنا بفداحتها في غمرة المشاكل والأحداث اليومية المتلاحقة. لقد جاءت النكبة جرحاً آخر غار في جسم الأمة العربية المثخن بالجراح، ولكن جرح النكبة كان أعمق هذه الجراح وأدماها وآلمها وأقساها، مما جعل لمشكلة العرب في فلسطين وضعاً خاصاً بالنسبة إلى سائر المشاكل التي يعانيها الحاضر العربي، ولا ينفي هذه الحقيقة أبداً، كون هذه المشاكل المتعددة جوانب مختلفة لقضية الأمة العربية.

فالنكبة، أولاً، قد اختلفت اختلافاً نوعياً لا كمياً عن مختلف أشكال السيطرة الأجنبية السابقة. لقد اختلف الاستعمار العثماني من حيث معناه ودرجة تأثيره عن سيطرة البويهيين والسلاجقة وغيرهم، واختلف الاستعمار الغربي عن الاستعمار العثماني، ولكن النكبة وقيام دولة يهودية رسمية مستقلة في أرضنا العربية، قد اختلفت في معناها والنتائج التي تترتب عليها اختلافاً في النوع لا في الدرجة، اختلافاً في الكيف لا في الكم. ونخطىء كثيراً إذا نحن اعتبرنا الاغتصاب اليهودي لأرضنا، كالسيطرة الاستعمارية القائمة في الوطن العربي، لأن السيطرة الاستعمارية والاغتصاب اليهودي يختلفان من حيث الأصول التي يرتكز عليها كل منهما ويستمد بقاءه، كما يختلفان من حيث الأهداف التي يعمل كل منهما على تحقيقها.

فالاستعمار ـ في أغلب الأحيان ـ هو نظام اقتصادي متطور. بمعنى أن الاستعمار هو انعكاس طبيعي للأنظمة الاقتصادية السائدة في المجتمعات التي تبني اقتصادها على أساس الحرية الاقتصادية للأفراد وتمنع تحديد الملكية وتملك الدولة وسائل الانتاج وإشرافها على توجيه وتوزيع الاقتصاد القومي عامة بما يحقق العدالة للمجموع. فهو، إذن، نتيجة منطقية

للتضخم الرأسمالي الناشىء عن تركُز الثروة بيد فئات قليلة في تلك المجتمعات. ومن الطبيعي أن يؤدي هذا النظام الاحتكاري الرأسمالي إلى الاستعمار، ليضمن المواد الخام التي تقوم عليها صناعته أولاً، وليضمن الأسواق التي تصرّف وتستهلك فيها منتجات هذه الصناعة ثانياً.

فالاستعمار، إذن، يرتكز في أصوله على طبيعة الأوضاع والأنظمة الاقتصادية القائمة في بعض مجتمعات العالم، ويحدد أهدافه حسب مقتضيات تلك الأوضاع ومتطلبات تلك الأنظمة. ولهذا، فإن بقاء الاستعمار مرتبط ببقاء النظام الرأسمالي في العالم، ورهن بنمو الوعي القومي ـ بنواحيه كافة ـ لدى شعوب البلدان المستعمِرة والمستعمَرة. وحين يزول النظام الرأسمالي وتسود المجتمعات أنظمة اشتراكية تقوم على أساس الاكتفاء الذاتي، والمساواة في توزيع الثروات، والقضاء على الاحتكار، وارساء المعاملات الاقتصادية بين المجتمعات القومية على أساس المساواة والمنفعة المتبادلة المبطنة بوعي انساني عميق، عندئذ سيزول أكبر وأهم عامل يدفع للاستعمار.

فالاستعمار، إذن، في الغالبية العظمى من الحالات، أساسه مادي اقتصادي، وهدفه مادي اقتصادي. وهذا الاستعمار يسير في طريق التقلص والانكماش السريع، ونظرة سريعة إلى الماضي حتى يومنا هذا، ترينا المناطق الواسعة التي اندحر فيها الاستعمار وانحسر عنها وهو لا بد سائر إلى الزوال حين يعمّ الوعي القومي الانساني.

أما الاغتصاب اليهودي، فإنه يختلف عن الاستعمار، لأن الأصول التي يرتكز عليها تختلف.

الاغتصاب اليهودي يرتكز على أصول تجد أساسها في دعوى قومية دينية. فهو يقوم على أساس أن الأرض العربية في فلسطين، بل والأرض العربية من الفرات إلى النيل، هي حق قومي تاريخي لليهود، وأن الشعب العربي فيها هو شعب دخيل عليها، يجب أن يطرد ليحلّ محله «الشعب اليهودي الأصلي الصاحب الشرعي لتلك الأرض...». فالاغتصاب اليهودي لم يقم إذن نتيجة التضخم الرأسمالي، والاقتصاد الاحتكاري، وهو ليس انعكاساً طبيعياً لطبيعة الأنظمة الاقتصادية السائدة في بعض مجتمعات العالم، وأساسه ليس مادياً صرفاً، وأهدافه ليست مادية صرفة كالاستعمار، وإنما يستند الاغتصاب اليهودي على ارتكازات تختلط فيها العوامل الروحية الدينية بالعوامل القومية والمادية.

وكما تختلف أصول السيطرة الاستعمارية عن أصول الاغتصاب اليهودي، فكذلك تختلف أهداف الاغتصاب اليهودي عن أهداف السيطرة الاستعمارية، فالاغتصاب اليهودي لا يستهدف ادخالنا في حلف أجنبي، أو عقد معاهدة استعمارية، أو الحصول على امتيازات اقتصادية، بل يستهدف اغتصاب الأرض العربية، وطرد الشعب العربي وإقامة دولة يهودية تمتد من الفرات إلى النيل، فخطره لا يقتصر كخطر الاستعمار على اضعاف الأمة العربية واستنزاف خيراتها فقط، وإنما يدخل في صميم حياتها القومية العربية، ويهدم أسس الوجود القومي العربي. إنه اغتصاب يقوم على تشويه التاريخ العربي، وتزييف أصالته، ونفي عروبته وعروبة الأرض العربية.

فقضيتنا في فلسطين، هي قضية وجود أو عدم وجود، إما أن نكون وإما أن يكونوا. . . إما أن ينتصروا (ولن ينتصروا) ويهوّدوا الأرض العربية، وينجحوا في توجيه هذه الضربة لأسس وجودنا القومي العربي، ويقيموا عليه وجوداً قومياً آخر، وإما أن ننتصر وتعود الأرض العربية ويعود الشعب العربي، ويتابع التاريخ الحاضر سيره، امتداداً طبيعياً للتاريخ الماضي.

هذا الاغتصاب اليهودي لن يتلاشى كالاستعمار بتلاشي النظام الرأسمالي وانتشار الوعي القومي السليم. لأنه أصلاً ليس نظاماً بل هو فكرة أو دعوى إلى وجود قومي، وليس نتيجة أنظمة اقتصادية بل تجسيداً لدعوى قومية دينية تجسّدت بدورها بالحركة الصهيونية التي قامت في القرن التاسع عشر. وتجسّد عمل هذه الحركة بمساعدة الاستعمار سياسياً في دولة يهودية رسمية مستقلة تنتصب اليوم في الوطن العربي، دولة رسمية يعترف بشرعيتها كل العالم، لها مجتمعها وحكومتها ولغتها ودوافعها وأهدافها اليهودية. . . وأين؟ في أرض عربية وعلى حساب من؟ على حساب الوجود القومي العربي ومليون نازح مشرد.

وبعد، فإن الحركة الصهيونية التي قامت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لم تقم من العدم، ولم تنشأ من لا شيء: إنها كانت التنظيم النضالي السياسي لرغبات اليهود التي سبقتها، وهذه الحركة الصهيونية تتميز بطابع دينامي حركي ولا يمكن أن تتوقف من تلقاء ذاتها، ولا تتوقف إلّا إذا أوقفت بالقوة، ولذلك فلا بد من تكتيل وتنظيم القوى العربية لوقف حركيتها.

فالدولة اليهودية التي قامت على الاغتصاب اليهودي، ليست دولة خاصة بهؤلاء المليون ونصف المليون يهودي الذين يعيشون في الأرض المحتلة اليوم. بل هي التجسيد العملي لرغبات معظم يهود العالم، ولها تنظيمات واسعة تنظّم تكتيل امكانات معظم اليهود السياسية والمادية والدعائية لدعم وجودها، ولها الحق أن تفرض على أي يهودي، وفي أي بقعة من بقاع العالم، ما تريد وأن تطلب منه القيام بأي عمل، ولو تعارض ذلك مع قوانين البلد الذي يعيش فيه[40].

ولا شك أن هناك علاقة وثيقة جداً بين السيطرة الاستعمارية والاغتصاب اليهودي، وبين الاستعمار عامة واليهودية العالمية، ولكنها علاقة تقوم على المصالح المشتركة، والهدف المشترك في ابقاء العرب ضعفاء، كل لمصلحته الخاصة ـ الاستعمار لتثبيت سيطرته، واليهود لتثبيت دولة «اسرائيل» وتوسيع حدودها. وهكذا يعمل الاستعمار على دعم اسرائيل، ويعمل اليهود على تثبيت سيطرة الاستعمار، ولكن هذا التشارك في المصالح لا يعني مطلقاً أن الاستعمار والخطر اليهودي شيء واحد. إنه التقاء في المصالح الواحدة وليس اندماجاً في نوعية واحدة. وتظل دوماً الأصول التي يرتكز عليها الاستعمار والأهداف التي يسعى إليها، أصولاً تجد أساسها في غالبية الأحيان في الأوضاع والأنظمة الاقتصادية، بينما تظل الأصول التي

---

(٤٠) هذا الحق خاص بالجمعية الصهيونية العمومية التي تمثّل أعلى هيئة في الحركة الصهيونية.

يرتكز عليها الخطر اليهودي والأهداف التي يسعى إليها تجد أساسها في عوامل روحية دينية قومية أكثر منها عوامل مادية. ولذلك فلا حل لقضية العرب في فلسطين إلاّ بحشد القوى العربية وتكتيلها لمجابهة هذا الخطر، حشداً وتكتيلاً قائماً على تفهُّم طبيعة هذا الخطر وأهدافه، وتكتيلاً قائماً على الانفعال العميق بمعنى النكبة تمهيداً لمعركة الثأر.

* * *

هكذا كان الطابع العام للحياة القومية العربية في عصور الانحطاط، طابع التجزئة والاستعمار والفساد السياسي والاقتصادي والاجتماعي العام الذي تجسّد بشكل صريح وواضح في نكبة العرب عام ١٩٤٨ إذ جاءت هذه النكبة نتيجة طبيعية للواقع العربي الذي يحمل ترسبات الانحطاط الطويل، وانعكاساً منطقياً لتفكك الحياة القومية العربية والوضع الشاذ المجزأ الذي ينافي طبيعة الوجود القومي العربي، والمحمَّل بكل أنواع الفساد السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

ويمكننا أن نلاحظ من هذا الاستعراض الموجز لطابع الحياة القومية العربية ابان عصور الانحطاط:

١ ـ ان التجزئة التي دخلت المجتمع العربي في أواخر عهد الدولة العباسية كانت تجزئة سياسية محدودة، وأنها في أواخر الحكم العثماني، ونتيجة الانحطاط الذي غرسه في جسم المجتمع العربي، بدأت تتسرب إلى الحياة القومية العربية، ولكن نقطة التحوّل في تاريخ تطور التجزئة كانت بمجيء الاستعمار الغربي حين اكتملت تقريباً التجزئة الجغرافية والسياسية والاقتصادية، وكاد الاستعمار الغربي ينجح في تجزئة النفسية العربية نفسها. كما نلاحظ أن التجزئة والسيطرة الأجنبية كانتا ولا تزالان عاملين متلازمين تقريباً في التاريخ العربي يغذيان أحدهما الآخر من جهة، ويغذيان المجتمع العربي بالضعف من جهة أخرى، ولا سيما التجزئة المثبتة بالاستعمار التي تركّزت بمجيء الاستعمار الغربي.

كانت التجزئة تثبّت الاستعمار، والاستعمار يثبّت التجزئة، والاثنان يثبّتان فساد المجتمع العربي.

٢ ـ ان هذه التجزئة لم تتناول أسس الوجود القومي العربي كأن يصبح مثلاً لكل جزء عربي لغته الخاصة وتاريخه الخاص المنفصل. وما حدث في عصور الانحطاط، أن المستلزمات التي تفرضها القومية العربية الواحدة لم تتجسد في هذه الفترة، فالقومية العربية كانت موجودة في عصور الانحطاط ولكنها في حالة عدم تجسيد.

٣ ـ ان الانحطاط الذي كان الطابع العام للحياة القومية العربية، كان انحطاطاً شاملاً أفقياً وعمودياً، امتد حتى شمل مختلف جوانب الحياة العربية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كما امتد حتى شمل كل الوطن العربي، فلم ينحصر في جزيرة العرب أو الهلال الخصيب أو وادي النيل أو المغرب العربي؛ وتأثرت به كل الأمة العربية كوحدة.

ونحن إذ نلمس اليوم بوادر تبلور الوعي القومي، نلمسها في كل الوطن العربي ولدى كل الأمة العربية، وإن كانت تتفاوت في نسبها.

٤ ـ ان النكبة جاءت انعكاساً طبيعياً، ونتيجة منطقية للحاضر العربي، كما جاءت تؤكد أن الأمة العربية تعاني أزمة شاملة حادة.

أزمة وجود...

أزمة سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وأخلاقية، أزمة تراكمت فيها كل ترسبات الفساد العميقة ومعالم الانحطاط الطويل، وأزمة حادة ملحّة تتناول الفرد العربي ونفسيته وأخلاقه ووضعه في هذا المجتمع، وتتناول المجتمع العربي وأنظمته وقيمه وعاداته ومفاهيمه، ووضعه بالنسبة إلى الانسانية.

أزمة حادة ملحة تطالب بالحل الثوري السريع...

لا شك أننا في استعراضنا حتى الآن الحياة القومية العربية في عصور الانحطاط، قد أغفلنا عنصراً هاماً في هذه الحياة، وهو الكيفية التي ردّ بها الشعب العربي على واقع الانحطاط هذا ـ أي النضال العربي في هذه الفترة. وقد يتراءى للقارىء أن الصورة التي رُسمت للواقع العربي فيها كثير من التشاؤم، ولكن نظرة عميقة شاملة إلى الحاضر العربي تُظهر بوضوح أن قضيته أعمق بكثير مما يظن البعض.

لا شك أن الشعب العربي قد ردّ بعنف على الاستعمار الذي كان أبرز وجه في معالم الانحطاط العربي، وقد ابتدأ هذا النضال منذ مئة عام، وفي بعض الأجزاء منذ أكثر من ذلك، وكانت سنوات ذلك النضال مليئة بالصور النضالية البطولية الرائعة التي ما زالت ماثلة في أذهاننا: ثورات الأمير عبد القادر الجزائري ضد فرنسا، وثورات الأمير عبد الكريم الخطّابي ضد اسبانيا، وثورات أحمد عرابي ومصطفى كامل وسعد زغلول، وثورات عمر المختار ضد ايطاليا، الجمعيات والأحزاب العديدة السرية والعلنية التي رفعت لواء النضال ضد الأتراك العثمانيين، ثورات الجزيرة ضد الأتراك وبريطانيا، ثورات عرب سوريا والعراق وفلسطين ولبنان ضد بريطانيا وفرنسا، وغيرها كثير...

ولن نستعرض هنا مميزات النضال العربي في تلك الفترة وخصائصه، يكفي أن نشير إلى أنه رغم الصور المشرقة التي تبدو فيه ورغم التضحيات الكبيرة التي بذلها، كان ينقصه كثير من مقومات ومستلزمات النضال الثوري السليم.

إن العبرة ليست في كمية التضحية والبذل فقط، بل في الكيفية التي نبذل ونضحي فيها.

ويمكننا أن نوجز الأسباب التي أدّت إلى فشل النضال العربي في تحقيق أهداف الأمة تحقيقاً كاملاً بالأسباب التالية:

ـ أول هذه الأسباب أن النضال العربي في الماضي لم يكن نضالاً عقائدياً، بمعنى

أنه لم يستند إلى عقيدة شاملة ثابتة تتحدّد بأهداف واضحة ثابتة. عقيدة شاملة للشعب العربي، تبيّن له واقع حاضره بمختلف جوانب هذا الحاضر، وترسم له صورة مستقبله، وعقيدة تكون بمثابة المقياس في صفوف الشعب، تجعل الأهداف واضحة دوماً أمام أعينهم، بها يقيسون مدى اقترابهم من الهدف ومدى سير أو انحراف قادتهم عن الطريق الموصل إلى أهداف العقيدة. ولم يكن النضال العربي الماضي يتلازم مع مثل هذه العقيدة الثابتة الواضحة مما كان يؤدي إلى فقدان الاستمرار في النضال، وتقطع الانتفاضات، وذلك لاعتماد الاستمرار في النضال على وجود الزعماء أكثر من الفكرة، وحتى عندما كان ينجح النضال في نيل الاستقلال، كان يقف ساكناً أمام مرحلة جديدة لا يعرف كيف يسير فيها، لأنه أصلاً لم يقم على عقيدة تحدد له أهدافه القريبة والبعيدة.

– وثاني هذه الأسباب، أن النضال العربي في الماضي، لم يستهدف تحقيق الوحدة العربية استهدافاً جدياً كاملاً. فلم يربط نضال التحرّر بنضال الوحدة ولم يجعل الوحدة مقياساً لانتاجية النضال مما كان يمنع وجود وحدة النضال التي لا تتجسد عملياً إلاّ بنضال الوحدة، ومما يتيح الفرصة للاستعمار لأن يتفرغ للسيطرة على كل جزء على حدة. وحتى حينما كان ينجح النضال في تحقيق التحرر، فإنه كان يبقى تحرراً اقليمياً. فتحرّرت سوريا ولبنان ولم تتحدا، وتحررت تونس ومراكش (جزئياً) ولم تتحدا، وكلنا يعلم مشاكل اتحاد السودان ومصر أيضاً.

– وثالث هذه الأسباب، أن النضال العربي في الماضي، كان يفتقر إلى التنظيم الدقيق المحكم الذي يشدّ أجزاءه بعضها إلى بعض، ويخطط للمعارك التي يخوضها تخطيطاً سليماً، ومن الطبيعي أن يؤدي ذلك إلى فقدان الاستمرار في النضال، وهدر الامكانات النضالية وعدم تحقيق مكاسب عملية سريعة.

– والسبب الرابع، أن قادة النضال، لم تتوفر فيهم دوماً الصفات النضالية الصحيحة التي تقوم على الصدق والاخلاق والتضحية والجدية، وكثيراً ما كانوا في نضالهم يسعون وراء مصالحهم الخاصة، ومنافعهم الشخصية مما كان يؤدي كثيراً إلى تخاذل هؤلاء الزعماء في منتصف الطريق، واتجاههم نحو المساومات وانصاف الحلول.

يضاف إلى ذلك، أن مفهوم التحرّر لم يكن واضحاً في أذهان الكثيرين، فكان البعض يطالبون في عهد الاستعمار العثماني، مثلاً، باللامركزية، وكان بعضهم ينادي بالتحرر من بريطانيا وفرنسا، ويعتبر بقاء الأتراك العثمانيين أمراً مفروغاً منه.

ومهما يكن، فإن أكثر من عامل قد أدّى إلى عدم نجاح النضال العربي في الماضي، ولا بد أن نأخذ بعين الاعتبار ضعف الوعي في تلك الفترة. ولكن هذا النضال العربي الماضي، لا شك أنه – بالرغم من هذه المآخذ الأساسية الجذرية – قد ساهم في التمهيد لقيام المفهوم الجديد السليم للنضال الثوري الذي بدأنا نلمسه اليوم.

وستتضح أكثر أسباب عدم نجاح النضال العربي في الماضي، حين نبحث أسس النضال القومي العربي السليم.

رابعاً: في أسس ومفاهيم الوجود القومي

١ ـ القومية العربية والدين

القومية العربية هي واقع الحياة اللغوي والتاريخي والجغرافي والثقافي، وكل ما يحوي هذا الواقع من وحدة في العادات والتقاليد والمصالح والأهداف والمعطيات، وما تولّد عن ذلك كله من شخصية جماعية متميزة لصقت بالأمة العربية.

أما الدين فهو رسالة، رسالة تقوم في جوهرها على مجموعة من الفضائل تستهدف الارتقاء بالانسان نحو الأفضل وذلك بما تبث فيه من مفاهيم الخير والحق والعدالة والاخاء والانسانية... وكل الأديان السماوية والأرضية تتحدّد في اطار هذا التعريف، والاسلام لا يشذّ عنه، رغم ما وضع من تشريعات وتنظيمات دنيوية لتنظيم حياة الانسان وعلاقاته، فإن جوهر هذه التشريعات والأنظمة هو أيضاً الخير والحق والعدالة.

فالقومية هي واقع حياة، هي وجود اجتماعي.

والدين هو رسالة أتت لتعالج وتهذب حياة معيَّنة كانت تعيشها القوميات وتغيّر فيها نحو الأفضل.

على هذا الأساس تختلف القومية عن الدين... على أساس أن القومية وجود، والدين رسالة أتت تصلح بعض جوانب هذا الوجود.

وعلى هذا الأساس أيضاً، ليس هناك أي تضارب بين القومية والدين، إذا فهمنا الدين على أنه في جوهره وروحه مجموعة من الفضائل والقيم، وإذا استطعنا أن نتصل اتصالاً عميقاً بالمحتوى الأساسي، والروح العامة التي يدعو إليها.

ولكن هناك تعارضاً بين القومية والدين، حين يتحوّل الدين من مجموعة فضائل يتصل الانسان من خلالها بالمثل الأعلى، إلى حركات سياسية تنفي القومية كوجود اجتماعي تاريخي، وتحاول أن تذيب كل قوميات العالم في بوتقة واحدة، بغضّ النظر عن لغاتها وتواريخها وأوطانها وثقافاتها ومصالحها وأهدافها المختلفة.

فالقومية تقوم على أساس أن ما يجمع الأفراد، ويوحد الجماعات في الأمم المختلفة المتعددة التي نراها اليوم، هو الروابط القومية المتفاعلة الخاصة بكل أمة، وليس وحدة المعتقدات السماوية التي تبقي كما قلنا مجموعة من الفضائل يتصل بها الانسان بالمثل الأعلى.

ولهذا تفرض القومية العربية أول ما تفرض، عدم التفرقة بين أفراد الأمة العربية، لأن وجودهم القومي العربي قد وحّدهم بروابط اللغة والتاريخ والوطن والثقافة والأهداف، وطبعهم بالشخصية القومية العربية، بغضّ النظر عن معتقداتهم الدينية، بحيث أصبحت الوحدة القومية العربية هي المحرك الأول للأمة العربية وليس الوحدة الدينية.

والتاريخ العربي لم يفصل أبداً بين العرب المسلمين والمسيحيين إلاّ حينما بدأ الاستعمار يستغل الشعور الديني لتفرقة الأمة العربية الواحدة. فحين خرج العرب من الجزيرة العربية يحملون رسالة الاسلام حارب عرب الحيرة المسيحيون إلى جانب عرب الجزيرة المسلمين ضد الامبراطورية الفارسية، وقاتل العرب الغساسنة النصارى جنباً إلى جنب مع عرب الجزيرة المسلمين ضد الامبراطورية البيزنطية(٤١).

وحين غزا النصارى الصليبيون الأراضي العربية بحملاتهم الدينية المعروفة، حارب العرب المسلمون والمسيحيون جنباً إلى جنب ضد الصليبيين في كثير من الأحيان، كما كانت طريقة معاملة النصارى الصليبيين، العرب المسلمين والمسيحيين واحدة في كثير من الأحيان أيضاً.

والوعي القومي العربي، أول ما بدأ يتبلور ضد الاستعمار التركي العثماني، بدأ على يد بطرس البستاني وابراهيم اليازجي المسيحيين، وكانت أول جمعية عربية تكوّنت لمحاربة الأتراك العثمانيين هي الجمعية العلمية السورية، التي أسسها عام ١٨٥٧ بطرس البستاني، وكان يعمل فيها جنباً إلى جنب، العرب المسلمون والمسيحيون على السواء. ولما قامت المذابح البشعة بين العرب المسلمين والمسيحيين عام ١٨٦٠ في لبنان وسوريا بفعل الاستعمار، أصدر العربي المسيحي بطرس البستاني جريدة نفير سورية، يحارب فيها الطائفية التي زرعها الاستعمار بين العرب المسلمين والمسيحيين، ويدعو إلى اتحاد الأمة العربية الواحدة ضد أخطار الاستعمار، ثم عاد فأسس المدرسة الوطنية لتربية النشء تربية قومية عربية بعيدة عن الطائفية والعصبيات الدينية.

ولما قامت الثورة المصرية الشهيرة عام ١٩١٩، قامت على اشتراك جميع المواطنين العرب، مسلمين ومسيحيين، حيث هبّوا سوية يطالبون بالاستقلال.

وحين بدأ الاستعمار العثماني حملاته القاسية لكبت الشعور القومي العربي، اشترك في مقاومته الشعب العربي بمختلف طوائفه. وتأرجحت أجساد شهداء القومية العربية على المشانق مسلمين ومسيحيين، بعضها إلى جانب بعض.

ولما بدأت المراسلات بين الشريف حسين، شريف مكة، وبين بريطانيا، للاتفاق على حدود الدولة العربية قبل قيام الثورة العربية عام ١٩١٦، رفض العرب التخلّي عن ولاية بيروت التي أرادت بريطانيا فصلها عن الدولة بحجة أن معظم سكانها مسيحيون، واستند العرب في ذلك، إلى أن سكان الولاية عرب لا يفرّق بينهم الدين ما دامت تجمعهم القومية العربية الواحدة.

وهذا مسيحي ماروني من لبنان مشهور بمارونيته يقول: «لا حرج في التمسّك بالقومية العربية والكلف باللغة، كما لا حرج في الدين. تتلاقى ملتنا العرب، ملة القرآن وملة الانجيل، حتى كان الاسلام اسلامان واحد بالديانة وواحد بالقومية واللغة، أو كأنما العرب مسلمون جميعاً حين يكون الاسلام هكذا: هدى

---

(٤١) الحصري، العروبة أولاً.

بمحمد وتمسكاً بقوميته وكلف بلغته. وإن لغير المسلم في أرض العرب أن لا يدين بدين (ابن عبد الله)، وأن يخلب لبه مثلاً كتاب «لابن مريم» كان حرف منه يفطر رفقاً، وصليب قعدت به دنيا وقامت دنيا. وأما أن يكون فينا عربي، من لحمنا ودمنا، ثم يغدو ولا يمتّ إلى محمد بعصبية ولا إلى لغة محمد وقومية محمد، فهو ضيف ثقيل علينا غريب الوجه بيننا»[٤٢].

إن القومية العربية قد وحدت بين أفراد الأمة العربية الواحدة، مهما اختلفت طوائفهم، حين وجدت تاريخهم الطويل ولغتهم وثقافتهم وأهدافهم.

وبعد، فإن وحدة المعتقدات الدينية، لم تصهر في يوم من الأيام القوميات المختلفة في بوتقة واحدة، كما أن اختلاف المعتقدات الدينية في القومية الواحدة، لم يفرّقها كذلك إلى قوميات مختلفة متعددة باختلاف وتعدد مذاهبها. ولم توجد وحدة المعتقد في القوميات التي يجمعها دين واحد، أي وحدة في الهدف والسياسة. ونظرة مبسطة إلى تاريخ الحروب العالمية منذ قرون عدة حتى اليوم تبرهن بوضوح أن الأمم إذا اختلفت مصالحها القومية، كانت لا تتردد في أن تضرب بوحدة الدين عرض الحائط.

ولنتساءل بعد ذلك: ماذا كان موقف تركيا من الأمة العربية في عهد الاستعمار العثماني المظلم؟ وما هو موقفها منها اليوم بالرغم من الدين الواحد الذي يجمعها؟

وما هو موقف باكستان ـ التي جعلت الاسلام دين الدولة من الأمة العربية رغم أن غالبيتها العظمى من المسلمين؟ إلا أن تتآمر مع بريطانيا على هؤلاء العرب «المسلمين»؟

وما هو موقف ايران من الأمة العربية؟

ولنتطلع بعد ذلك إلى الجانب الآخر، وننظر ما هو موقف الهند وكثير من دول الكتلة الأسيوية الافريقية من قضايانا؟

إن وحدة الدين لم تدفع تركيا وباكستان وايران إلى التقرّب منا وتأييدنا، بينما أيّدتنا الهند وغيرها كثير رغم اختلاف الأديان. فمن الواضح، أن ما يقرر نوعية العلاقات الانسانية، هو الوعي القومي الانساني، وليس وحدة الدين.

وقد كان للاستعمار الغربي أولاً والعثماني في ما بعد، أثر كبير في تغذية العصبيات الدينية، متّبعين في ذلك سياسة فرّق تسد.

وقد بدأت هذه الارساليات الدينية الأجنبية عملها في لبنان منذ عام ١٦٢٥. وكانت الارساليات الفرنسية أول الارساليات الدينية التي دخلت الوطن العربي، ودخلت بعد ذلك الارساليات الدينية الأمريكية في الربع الأول تقريباً من القرن التاسع عشر. وقد اتخذت هذه الارساليات في بادىء الأمر شكل ارساليات تبشيرية، ثم تحوّلت تدريجياً إلى التعليم، وتحوّلت بعد ذلك إلى ركائز يستند إليها الاستعمار في بث ثقافته وتوجيهه من جهة، وفي نشر الطائفية

---

(٤٢) اسحق موسى الحسيني، أزمة الفكر العربي. والعربي المسيحي هو أمين نخلة.

وتغذية الخلافات الدينية والعصبيات الطائفية من جهة أخرى. وكانت هذه الارساليات مقدمة الجيوش الأجنبية التي استعمرت الوطن العربي في ما بعد.

كما وجدت الامبراطورية العثمانية في أواخر أيامها، أن أضمن طريقة تحافظ بها على حدود الامبراطورية المتداعية، هي أن تعمل على بث التفرقة بين سكان الأجزاء المختلفة، وإلهائهم بعضهم ببعض عن ظلم الاستعمار العثماني. واتفق الاستعمار الفرنسي الذي كان قد احتل الجزائر، والبريطاني الذي كان قد احتل بعض شواطىء جزيرة العرب في هذا الهدف مع الاستعمار العثماني، فراح الثلاثة يتآمرون على تمزيق وحدة النفسية العربية، ودبروا عام ١٨٦٠ أبشع وأرهب مذابح عرفتها هذه المنطقة. إذ مدّت فرنسا العرب المسيحيين الموارنة بالسلاح ومدت بريطانيا العرب الدروز بالسلاح، ووقفت الامبراطورية العثمانية تتفرج على العرب يذبحون بعضهم البعض، وقد أعماهم التعصب الطائفي.

ولا تزال مشكلة الطائفية في لبنان، المشكلة الأولى التي تجمّد الشعب العربي هناك، وتمنعه من الانطلاق في ركب الأمة العربية المتحررة نحو الوحدة العربية خوفاً من أن يصبح المسلمون هم الأكثرية.

واتبعت بريطانيا السياسة نفسها لتثبيت أقدامها في وادي النيل، فغذّت حركة الأقباط في مصر، وعملت بواسطة الارساليات الدينية التبشيرية على تغذية الخلافات الدينية بين جنوب السودان وشماله، ولا زالت هذه المشكلة ماثلة أمامنا اليوم.

والقومية العربية لا تعترف أبداً بالفروقات الدينية في تكوين ونشوء الاجتماع البشري. ولقد أثبت التاريخ أن أية وحدة لا تستمد أساسها من وحدة الروابط القومية، هي وحدة عرضية ما أسرع ما تتفكك حين تسنح الظروف.

ولكن الدين الاسلامي بالنسبة إلينا نحن العرب، قد اختلف عنه بالنسبة إلى غيرنا من الأمم. فالإسلام انتفاضة عبرت عن حقيقة هذه الأمة، ومثلها العليا وعبقريتها وامكاناتها ورسالتها ونظرتها إلى الحياة والكون والإنسان، ولو لم يكن الاسلام كذلك لما استطاع العرب أن يفهموه وأن يعملوا بمثله وأن يسعوا إلى نشره بين الأمم. لقد كان الدين الاسلامي رسالة الأمة العربية في الماضي نحو الانسانية جمعاء.

ولذلك فإننا نعتز به، كدين وثقافة وتشريع، ونفهمه على أنه نزعة الانسان نحو المثل الأعلى، وارتقاء بالحياة الأفضل، إن الدين الاسلامي وأي دين آخر، إذا توصلنا إلى جوهره، وتلمّسنا روحه العامة، ونظرنا إليه من هذا المفهوم، على أنه قيم ومثل وفضائل وتهذيب للحياة وبلورة للإحساس، لا أنظمة اقتصادية واجتماعية وثقافية محددة، إن أي دين بالاستناد إلى هذا المفهوم هو انطلاق للعقل، ودفع نحو التطور والتجدد.

٢ ـ القومية العربية والتجزئة

إن طبيعة القومية العربية أن تكون واحدة، والوحدة أساس عام جوهري من أسس

الوجود القومي العربي؛ ولذلك، فإن أي تجزئة في مظاهر الحياة العربية، سياسية كانت أم اقتصادية أم اجتماعية أم ثقافية، إنما هي وضع شاذ يتنافى وطبيعة الوجود القومي العربي الواحد.

وقد انتقلت التجزئة، منذ ابتداء تسرّب السيطرة الأجنبية، في أواخر أيام الدولة العباسية حتى مجيء الاستعمار الغربي وبعده، ومن تجزئة سياسية محدودة كانت تتمثل بكيانين أو ثلاثة أو أربعة كيانات، إلى تجزئة جغرافية سياسية تتمثل اليوم بأكثر من عشرين كياناً، وتجزئة اقتصادية واجتماعية وثقافية تطبع مختلف مرافق الحياة القومية العربية.

كانت سياسة الاستعمار الغربي تنبع من المنطق القائل: فرّق تسد، ومن الحكمة القائلة: إنه لأسهل عليك أن تكسر عصا واحدة من أن تكسر حزمة مجمّعة من العصي. وأن تتغلب على جيش واحد من أن تتغلب على خمسة.

وابتدأ الاستعمار يطبق هذه الحكمة في حيّز الواقع.

التجزئة في المغرب العربي: بعد أن أتمّت فرنسا احتلال المغرب العربي منذ عام ١٨٣٠ حتى عام ١٩١٢، عملت جهدها لعزله عن المشرق العربي عزلاً تاماً مستخدمة الوسائل كافة، ثم راحت تعمل على عزل أجزاء المغرب العربي نفسه، تونس والجزائر ومراكش بعضها عن بعض، ليسهل استعمال واستنزاف كل جزء على حدة. فلجأت إلى تجزئة وحدة الشعب العربي هناك بإثارة النزعة البربرية لتوقف التيار العربي، وعملت على اعطاء البربر نوعاً من الاستقلال الذي حرمت منه العرب، وإنشاء محاكم خاصة بهم، واعطائهم امتيازات لا تتوفر لأي فئة أخرى، وراحت تعمل على فرنستهم بإقصاء اللغة العربية وتعليمهم الفرنسية. وهكذا أوجدت فرنسا فئتين تتصارعان الواحدة مع الأخرى، وضمنت ركيزة قوية في المغرب، ولعلنا كلنا لا زلنا نذكر الدور الذي مثّله الجلاوي، باشا مراكش، في محاولة اخماد الثورة العربية في مراكش قبل رجوع السلطان ثم فرضت قيوداً ثقيلة على التنقّل بين أجزاء المغرب العربي، وراحت تبتكر الأساليب لتجزئة وحدة النضال، وكان آخر ما وصلت إليه، هو فكرة الاستقلال الجزئي الذي يفكك وحدة جبهة المغرب.

أما ليبيا فقد احتلّت من قِبَل ايطاليا أولاً، ثم جزّئت في ما بعد إلى ثلاثة أجزاء: منطقة فزّان في الجنوب وأعطيت إلى فرنسا، ومنطقة برقة في الشمال الشرقي وأعطيت إلى بريطانيا، ومنطقة طرابلس الغرب في الشمال الغربي، وأعطيت من ثم إلى ايطاليا، إلى أن جلت ايطاليا عنها في ما بعد. ثم راح الاستعمار يعمل بعد ذلك على تثبيت تجزئة هذه المناطق بتغذيته النزعات الانفصالية. ولا تزال ليبيا حتى اليوم تعيش في هذا الوضع، مجزأة إلى ثلاثة أقطار لكل منها حدوده وهيئاته وممثلوه.

التجزئة في وادي النيل: كثيراً ما يتساءل الفرد منا عن سبب عزلة مصر الطويلة عن الأحداث السياسية التي كانت تدور في المغرب والهلال الخصيب، والسبب أن ذلك جاء نتيجة منطقية للجهود التي بذلها الاستعمار العثماني والغربي لعزل مصر عن سائر المجموعة

العربية. فإن الأهداف التي كان يعمل لها محمد علي الكبير لإقامة دولة واحدة في مصر وسوريا وفلسطين والحجاز والعراق قد أخافت العثمانيين، فراحوا يعملون منذ ذلك الزمن البعيد على عزل مصر عن سائر المجموعة العربية، بشتى الوسائل. وقد تابع الاستعمار العثماني هذه السياسة بعد تلاشي خطر محمد علي الكبير، إذ بقيت فكرة تزعُّم مصر الحركة العربية واردة دوماً.

«وكان عدد غير قليل من شبان العرب ـ من أهالي الولايات العربية الباقية تحت الحكم العثماني المباشر ـ في العهد الحميدي، يتوجهون نحو مصر بقلوب مفعمة بالآمال، معتقدين بأنها ستعمل ما يجب عمله لإعادة مجد العرب وإحياء القومية العربية. وكان عدد كبير من رجال السياسة العثمانية في ذلك العهد يتخوفون من مصر لهذا السبب، وكانوا يحسبون ألف حساب لاحتمال تزعُّمها الحركة العربية. ولذلك كانوا يتخذون شتى التدابير للحيلولة دون اتصال أهالي الولايات العربية بسكان الخديوية المصرية»[43].

ولما دخل الاستعمار البريطاني وادي النيل مبتدئاً بمصر عام ١٨٨١، عمل على إحكام الطوق حول مصر والسودان، لعزلهما عن المغرب العربي من جهة، وعن الهلال الخصيب وجزيرة العرب من جهة ثانية. ثم وجد أن أفضل طريقة يضمن بها التجزئة، هي أن تظهر حركة مصرية صميمية تطالب ببقاء الوضع المجزأ وترفض تغييره. وهكذا وجدت الحركة الفرعونية التي تنادي بقومية مصرية منفصلة عن القومية العربية. وبعد أن ضمن انعزال مصر والسودان عن سائر المجموعة العربية، راح يعمل على عزل مصر عن السودان، متبعاً الوسيلة السابقة نفسها، كما عمل على تجزئة السودان نفسه بتغذية النزعات الانعزالية العنصرية التي خلقها عن طريق الارساليات التبشيرية والأساليب التي اتبعها في جنوب السودان، بحيث أصبح الجنوب ينادي بالانفصال عن الشمال، ولا زلنا نرى هذا الوضع حتى يومنا هذا.

التجزئة في الهلال الخصيب: وقد اتخذت أوضح شكل للتجزئة المصطنعة التي خلقها الاستعمار الغربي في الوطن العربي. فقد كانت منطقة الهلال الخصيب في عهد الاستعمار العثماني عدة ولايات ومتصرفيات، لا تشكّل حدوداً وحكومات منفصلة، كما تختلف اختلافاً كبيراً عن الحدود والمساحات الجديدة التي أوجدها الاستعمار الغربي لدول هذه المنطقة.

لقد جاء الاستعمار الغربي، ووضع اصبعه على الخريطة وقال: هذه يجب أن تكون دولة سوريا، وهذه لبنان، وهذه فلسطين والعراق بعد أن مزجت الولايات والمتصرفيات السابقة، واستخرجت منها حدوداً جغرافية جديدة لكل من هذه الدول. كما جعلت لكل منها حكومة خاصة، وجنسية خاصة، وميزانية خاصة، وعلماً خاصاً.

ثم وضعت بريطانيا اصبعها على خريطة سوريا، ورسمت خطاً وهمياً امتد إلى جزء من السعودية، وقالت: هذه يجب أن تكون حدود دولة جديدة اسمها شرق الأردن، وكانت في البدء امارة ثم رفعتها إلى مرتبة ملكية في ما بعد.

---

(٤٣) ساطع الحصري [أبو خلدون]، آراء وأحاديث في القومية العربية.

هذه المنطقة من الوطن العربي التي كانت تنقسم إلى متصرفيات وولايات من نوع التنظيمات الادارية التي تسهل الحكم، والتي كان هدف الثورة العربية عام ١٩١٦ توحيدها في دولة عربية واحدة، أصبحت بعد الحرب العالمية الأولى، خمس دول رسمية مستقلة.

وبعد أن انتهى الاستعمار من تجزئة الأرض العربية في الهلال الخصيب جغرافياً وسياسياً، راح يعمل كما عملت فرنسا في المغرب، وبريطانيا في وادي النيل على تثبيت هذه الحدود الجديدة التي اصطنعها بحواجز أخرى أعمق أثراً. فتعهدت فرنسا الطائفية التي كانت قد أوجدتها بمساعدة بريطانيا والأتراك في لبنان قبل ذلك، ثم بلورت هذه الطائفية الدينية بحركة اقليمية سياسية تنادي بالقومية اللبنانية المنفصلة عن القومية العربية! ثم ظهرت في سوريا ولبنان والأردن وفلسطين والعراق حركة جديدة تنادي بالقومية السورية المنفصلة عن القومية العربية! وبعد أن أتم الاستعمار عزل كل قطر من الأقطار التي اصطنعها بعضها عن بعض، راح يعمل على تجزئة هذه الأقطار نفسها، بتغذية الخلافات الدينية الطائفية بين المسلمين والمسيحيين في لبنان، والنعرات المذهبية بين السنّة والشيعة في لبنان والعراق والبحرين.

التجزئة في جزيرة العرب: وأكثر ما يظهر تأثيرها في جنوب جزيرة العرب، حيث أوجد الاستعمار البريطاني عدداً كبيراً جداً من الكيانات الصغيرة، ما بين مشيخات وسلطنات ومحميّات وامارات، نصب على كل منها زعيماً، وقال له «أنت رئيس هذه الدويلة»، ثم ربطها جميعها بمعاهدات عجيبة.

وهكذا جزّأ الاستعمار بعض الأرض العربية وعمل على عزل البعض الآخر. وعاشت الدويلات العربية هذا الواقع المجزأ، لكل منها حدودها الخاصة واقتصادها الخاص، وبرامجها الثقافية الخاصة، وحكومتها الخاصة، وسياستها الخاصة!

ومن الطبيعي أن تمتد هذه التجزئة حتى تشمل مختلف أجزاء الوطن العربي، ومختلف مرافق الحياة القومية العربية، فتبعثر امكاناتنا الاقتصادية والبشرية والفكرية، وتفقدنا وحدة الهدف، وتغذي الاستعمار والدولة اليهودية، وتساهم في تثبيت الفساد العام.

إن هذه التجزئة البغيضة، تجزئة مصطنعة ليست من صميم الحياة القومية العربية، فالقومية العربية طبيعتها واحدة، والوحدة أساس هام من أسس وجودنا القومي العربي. وما بقيت هذه التجزئة تخيّم على مرافق حياتنا القومية العربية، فلن تتجسّد القومية العربية، ولن تتكامل جوانب حياتها تكاملاً شاملاً متناسقاً، ولن تتفاعل القوى والامكانات العربية والبشرية والمادية والثقافية والاجتماعية العامة تفاعلاً منتجاً خلاقاً.

إن وجودنا القومي العربي الواحد، يجب أن يتجسّد في كيان واحد متفاعل، تعبّر به القومية العربية عن نفسها تعبيراً ينبع من الوضع الطبيعي لحقيقتها وأصالتها.

٣ ـ القومية العربية والاقليمية

لعله من الطبيعي أن يؤدي التفكك الذي تمر به الحياة القومية العربية، نتيجة التجزئة التي تكاد تشمل مختلف جوانبها، ونتيجة عوامل ومظاهر الفساد العديدة التي تكاد تطبع معظم مرافقها، إلى أن تبدأ تنمو في القومية العربية تيارات وحركات وأفكار تنافي طبيعة الوجود القومي العربي الواحد.

لنتصور هذا الوقت الطويل الذي مضى على الشعب العربي، وهو يعيش حياة الكيانات، والتجزئة المثبتة بالاستعمار والفساد. اقتصاده يُبنى على أساس الكيان المستقل، سياسته تُبنى على أساس الكيان المستقل وتنبع من حدود الاقليم، ثقافته ثقافة كيان مستقل، اتصالاته ومعاملاته وارتباطاته تكاد تكون محصورة في نطاق الكيان المستقل. ألا نتوقع بعد ذلك، أن يؤثر هذا التحديد الضيق الذي يعيش فيه الشعب وتفرضه التجزئة، في تفكير الشعب، ومواقفه ونظرته لما حوله؟ وأن ينعكس في شعوره ومدى ارتباطه بالكيان العربي الكبير؟

ليس من السهل أن ينمو لدى الفرد العربي الوعي القومي العربي، الذي يرتفع عن الكيانات في سبيل مصلحة الوطن الواحد الكبير، والذي يستوحي شعوره وتفكيره وأهدافه من مستلزمات ومصلحة الوجود القومي الواحد، حين نجد مثلاً أن هذا الفرد لا يستطيع أن ينتقل من جزء عربي إلى آخر، إلاّ بعد معاملات رسمية طويلة، ولا يستطيع أن ينقل تجارته من جزء إلى آخر، إلا بعد أن يخترق سلسلة من المعاملات الطويلة التي فرضتها الحواجز الجمركية ومصلحة الاقتصاد المستقل، ولا يستطيع أن ينتقل من جامعة إلى أخرى، إلا وتتغير عليه مناهج الثقافة وتبدأ مشاكل معادلة الشهادات وغيرها.

ولنتصور بعد ذلك الجهود الكبيرة التي بذلها الاستعمار عن طريق المعاهد الأجنبية والارساليات الدينية والفئات التي تعيش على التجزئة، ليبقي هذه الحواجز السياسية والاقتصادية والفكرية بين أجزاء الوطن الواحد، وليثبت مفهوم التجزئة في نفسية الشعب العربي بعد أن ثبت التجزئة في الأرض العربية.

إن حياة التجزئة المصطنعة التي تطبع حياتنا القومية العربية، حياة الكيانات، والحدود المستقلة، والحكومات المستقلة والجنسيات المستقلة، والاقتصاد المستقل والبرامج الثقافية المستقلة، وحياة القيود الاستعمارية الثقيلة التي تثبّت هذا الوضع، والفساد العام والجهل الذي يسدل حجباً كثيفة على العقل العربي ـ كلها أمور بدأت تعبر عن نفسها تعبيراً يتلاءم تماماً وهذه الحياة الشاذة أي تعبيراً شاذاً.

وقد تجسّد هذا التعبير الشاذ في كثير من مظاهر الحياة القومية العربية وكانت النزعات الاقليمية أحد وجوه هذا التعبير الشاذ، بحيث جاء فكرها وشعورها ومواقفها واتجاهاتها، فكر تجزئة وشعور تجزئة ومواقف تجزئة واتجاهات تجزئة، وبحيث جاء وعيها واقعها الشاذ وعياً شاذاً ينبع من حدود الاقليم المستقل لا من الكيان الواحد الكبير.

وقد انعكست هذه النزعات الاقليمية في الحاضر العربي بنسب وأشكال متفاوتة.

انعكس بعضها بشكل احساس اقليمي محلي، بقي في حيّز الاحساس كالإحساس بالسورية، أو المصرية، أو اللبنانية.

وانعكس بعضها بشكل احساس تبلور بتيار فكري بقي في حدود الكتابات والأفكار، كالفرعونية في مصر. فإن مجموعة من الشعب العربي في مصر فتحت عينيها وترعرعت في ظل الوضع المجزأ المنعزل، وحسبت أن هذا هو الوضع الحقيقي وكل ما عداه هو الشاذ. وبدأ يتشكّل لدى بعض المفكرين والكتّاب وغيرهم تيار يقول بأن الشعب العربي في مصر ليس فيه من مظاهر العروبة شيء، وأنه امتداد للأجيال الفرعونية القديمة؛ له شخصيته الخاصة وثقافته وعاداته وتقاليده الخاصة ومصالحه وارادته الخاصة، أي، أن هناك قومية مصرية منفصلة عن القومية العربية تكونت على مرّ التاريخ منذ عهود الفراعنة.

ولن نناقش هذا الاتجاه هنا بالتفصيل، فقد أصبح واضحاً من العرض السابق لروابط القومية العربية، ونمو وتطور القومية العربية في التاريخ أن الشعب العربي في مصر هو جزء صميم من هذا الوجود الاجتماعي، بتاريخه ولغته وثقافته. وأن مصر لم تكن في يوم معزولة عن سائر المجموعة العربية في حدودها الحالية. إن الانتساب إلى الفراعنة بمعنى الاعتزاز الحضاري، شيء يتشارك فيه المصري مع السوري مع العراقي، أما الانتساب إلى الفراعنة بمعنى القومية الفرعونية المصرية، والتاريخ والثقافة والشخصية المصرية المتميزة فليس إلّا انفعالاً شاذاً بالواقع المجزأ الشاذ. إننا نستطيع القول بأننا نتتمي إلى أمة معيّنة، حين تكون لغتنا لغتها وتاريخنا الطويل تاريخها، وثقافتنا ثقافتها، وشخصيتنا بكل ما فيها جزء من شخصيتها العامة.

فأين الشعب العربي في مصر من الفراعنة على هذا الأساس؟ أين الشعب العربي في مصر من اللغة الفرعونية الهيروغليفية التي يصعب على كبار علماء الآثار فك رموزها؟ أين هو من الثقافة الفرعونية التي تتمثل ببعض الكتابات على ورق البردي والتي لا تمتّ بصلة إلى الثقافة التي يعيش بظلها منذ قرون وقرون؟ إننا لا نستطيع أن نقول بأننا فرعونيون إلّا إذا استطعنا أن نترك اللغة العربية ونتكلم اللغة الهيروغليفية، أو أن نفترض أن الشعب العربي في مصر قد هاجر من الكرة الأرضية إلى كوكب مجهول قبل آلاف السنين (أي طيلة الفترة التي زال فيها حكم الفراعنة ودخل بعدها التاريخ العربي مصر وأصبحت عربية أرضاً ولغةً وتاريخاً وثقافة)، بحيث جاء الشعب في مصر اليوم امتداداً نقياً لآخر أسرة فرعونية!

ثم أين هي هذه الشخصية الفرعونية المصرية المتميزة؟ وأين تتجسّد، وبماذا تعبّر عن نفسها؟ وهل نلمس آثارها في لغة خاصة أو تاريخ خاص أو ثقافة وعادات وتقاليد خاصة تختلف عن لغة وثقافة وتاريخ وعادات الشعب العربي الذي يمتد من الأطلسي إلى الخليج؟

ولا ضرورة في الواقع لأن نسترسل في إثبات خطأ الاتجاه الفرعوني، فكل ما في ماضينا وحاضرنا يُظهر بوضوح اننا عرب لغة وتاريخاً وثقافة، في مصر أو المغرب أو جزيرة العرب أو

الهلال الخصيب، وان هذا الوجود القومي العربي اللغوي والتاريخي والثقافي والاجتماعي العام، هو الذي يربطنا بهويتنا، أكثر مما نرتبط بهرم أصم أو مومياء محنطة.

وانعكس بعض هذه النزعات الاقليمية بشكل فكرة وبعضها بشكل نزعة طائفية دينية، تبلورت وتجسّدت في ما بعد بتنظيم سياسي، كالفكرة القومية السورية التي تجسّدت في الحزب القومي السوري الاجتماعي، والفكرة القومية اللبنانية التي تجسّدت في حزب الكتائب.

وليس من الضروري أن نثبت هنا خيالية هاتين الفكرتين، فإنها واضحة. فالفكرة القومية السورية هي تماماً كالفرعونية تحاول أن تثبت وجودها الوهمي باختراع حدود جغرافية متميزة لـ «الوطن السوري» وتستند إلى أصول جنسية تاريخية آرامية وأشورية وبابلية وفينيقية، وخصائص وشخصية جماعية متميزة عن الشخصية القومية العربية. وما ينطبق على الفرعونية في هذا الصدد، ينطبق على الفكرة القومية السورية.

وأما الفكرة القومية اللبنانية التي يدّعون أنها تقوم على أرض وتاريخ وروابط لبنانية خاصة فيكفي أن نشير، إلى أن لبنان بحدوده الحالية لم يظهر إلى الوجود إلاّ منذ أقل من أربعين سنة، بعد التغييرات الجغرافية السياسية التي أجراها الاستعمار الأنكلو - فرنسي بموجب معاهدة سايكس - بيكو، إذ اقتطع سهل البقاع وبعض مدن الساحل من سوريا، وغيّر معالم ولاية بيروت السابقة ثم ضمها إلى جبل لبنان. وهكذا ولدت نتيجة هذه الاضافات الدولة اللبنانية بحدودها الحالية: فأين هي الأرض الخاصة والتاريخ الخاص والروابط الخاصة؟ والواقع، أن الفكرة القومية اللبنانية ما هي إلاّ التبرير الفكري والستار السياسي للطائفية الدينية التي خلقها الاستعمار في لبنان.

وما يهمنا هو أن نشير إلى أن هذه النزعات الاقليمية، احساسات كانت، أم فكرة، أم حركة سياسية هي نزعات أوجدها أو غذّاها ونمّاها الاستعمار وأعوانه لتكون بمثابة حواجز فكرية ونفسية تدعم الحواجز الجغرافية السياسية، وتثبّت التجزئة في الوطن العربي. وهي من جانب آخر، تعبير شاذ عن وضع شاذ وانعكاس طبيعي للواقع العربي، وترجع في أساسها إلى ضعف الوعي القومي العربي. ولذلك فهي لا بد سائرة إلى الزوال حين يشتد تبلور هذا الوعي، وتزداد معرفة الانسان العربي حقيقته، وتذوب في حرارة الشعور الوحدوي كل هذه النزعات الانفصالية!

وقد بدأت هذه النزعات تتلاشى فعلاً في مصر، وتخفت حدتها في الهلال الخصيب.

٤ - القومية العربية والاتجاهات العالمية

ونقصد بالاتجاهات العالمية، تلك التي تحاول تخطّي المجتمع القومي العربي للوصول إلى المجتمع العالمي، فالمجتمع القومي العربي، وكذلك كل مجتمعات العالم، ليس لها أي مبرر للوجود، بل كثيراً ما تكون سبب المشاكل الانسانية بالاضافة إلى أنها أسرة انسانية كبيرة

يجب أن تعيش في مجتمع عالمي واحد كبير.

وأصحاب هذا الاتجاه «العالمي» ثلاثة أقسام:

- الاتجاه الديني: وقد حدّدنا موقف القومية العربية من الدين في ما سبق.

- الاتجاه العالمي الانساني غير المحدّد.

- الاتجاه العالمي الماركسي.

الاتجاه العالمي الانساني غير المحدد: أصحاب هذا الاتجاه لا ينادون بالعالمية استناداً إلى فكرة معيّنة، أو فلسفة محدّدة بتفاسير وأنظمة، وأحسن وصف ينطبق عليهم هو الاتجاه العالمي غير المحدد. ولهذا كثيراً ما نجد اتجاهات فرعية داخل هذا الاتجاه الواحد. فبعضهم يريد تخطّي الوجود القومي إلى مجتمع عالمي، ولكنه يرفض الفكرة الشيوعية، ولا يحدّد شكل هذا المجتمع الذي يريد، وبعضهم يتأثر بواقعه القومي كما يتأثر ببعض جوانب الفكرة الماركسية فيأتي اتجاهه خليطاً بين الاثنين، ومن هؤلاء الذين يؤمنون بالوجود القومي كما يؤمنون بأن تاريخ الانسانية هو صراع طبقات، وأن صراع الطبقات هو المحرك الوحيد للتطور التاريخي. وواضح ما بين هذين الاعتقادين من تناقض. وهذه الاتجاهات في الواقع، هي نزعات لا تبرز بتيار أو فكرة، وهي أقرب ما تكون إلى احساسات انسانية هنا وهناك لا تعرف كيف تعبّر عن نفسها بوضوح. ولكن أصحاب هذا الاتجاه أو هذه الاحساسات يجمعهم كلهم دافع واحد هو النزعة الانسانية والعواطف الانسانية. وأهم عامل في ايجاد هذا الاتجاه، هو عدم فهم الفكرة القومية العربية فهماً صحيحاً، والخلط بين القومية كوجود اجتماعي تاريخي، وكواقع حي تكون عبر الأجيال، وبين الاتجاهات العنصرية أو العدوانية والتعصبية والاستعلائية التي ظهرت وتظهر إلى الآن في بعض القوميات من جهة، وما رافق عصر تبلور الشعور القومي من حروب واستعمار نتيجة الانقلاب الصناعي من جهة ثانية، بحيث تلازمت في أذهانهم صورة الاستعمار والعدوان بمفهوم القومية. كما يعتقد البعض أيضاً، أن القومية تعني الانعزالية والانكماش في داخل حدود المجتمع القومي وقطع كل صلة للأمة بالعالم.

ونجيب عن هذا الاتجاه:

بأن المشاكل الانسانية، والظلم والحروب، لا ترجع أبداً إلى الوجود القومي، بل ترجع بالدرجة الأولى إلى الأنظمة السائدة في المجتمعات القومية، كما لا ترجع الاتجاهات العنصرية أو الاستعلائية إلى الوجود القومي أيضاً، بل ترجع إلى فقدان الوعي القومي الانساني الصحيح، بالاضافة إلى أن القومية هي وجود اجتماعي تاريخي متفاعل وليست تراكماً بشرياً جامداً، ينعزل في حدود صلبة تمنع الاتصال.

الاتجاه العالمي الماركسي: الماركسية فلسفة كلية شاملة للتاريخ والكون والانسان، جاءت نتيجة فترات الظلم الاجتماعي القاسي الذي ساد معظم العالم ولا سيما أوروبا بعد

الانقلاب الصناعي، وما رافق هذا الانقلاب من تغيرات في بنيان المجتمعات، وتركُّز الثروة في يد فئات معدودة، والطريقة التي استغلت بها هذه الفئات جهود العمال الذين تجمّعوا في معاملها، والبؤس الذي كانوا يعيشون فيه، مما جعل الماركسية تجعل الاقتصاد والعوامل المادية، المحرك الوحيد لتطور التاريخ، والتفسير الوحيد للمظاهر الاجتماعية مهما كان شكلها، والمحدد الوحيد للأخلاق والقيم والرغبات والأعمال - وبكلمة، السبب وراء كل أسس ومظاهر الوجود الاجتماعي. وعلى هذا الأساس، جاءت الماركسية بنت الظروف التي نشأت فيها، ومن الوهم أن نظن أن ماركس قد ابتدأ بوضع الفكرة الماركسية من غير أن يتأثر بالظروف المحيطة به، وأنه درس تاريخ الاجتماع الانساني دراسة علمية موضوعية دون أن يبتدىء بفرضية معيّنة. لقد رجعت الماركسية إلى التاريخ وفسرته تفسيراً يتلاءم وأهدافها، ولو رافق عصر الانقلاب الصناعي والتغيرات التي أحدثها، أنظمة اقتصادية وسياسية عادلة، تزيل هذا الظلم الاجتماعي بجميع أنواعه، لما كان هناك اليوم فلسفة ماركسية.

فالماركسية، إذن، فلسفة نشأت وتبلورت نتيجة ظروف وأوضاع خاصة، وتجسّدت في تنظيمات وأحزاب سياسية.

أما القومية فهي وجود اجتماعي... هي واقع تاريخي حيّ تكوّن عبر التاريخ وبقي يتطور ويتبلور حتى يومنا هذا.

فالماركسية باعتبارها فلسفة تبقى دوماً خاضعة للنقاش والنقد والنقض، أما القومية فهي ليست فكرة تُعتنق أو لا تُعتنق، هي واقع الوجود الاجتماعي الانساني الذي ربط الجماعات البشرية عبر التاريخ، وما يُناقش ويُنقد ويُنقض ليس القومية وإنما الأنظمة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والأفكار والآراء داخل المجتمع القومي. فنحن لا نستطيع أن نقول نحن قوميون أو غير قوميين، لأننا أصلاً لم نضع لغتنا وثقافتنا وعاداتنا وتقاليدنا وفق خطة مرسومة لنربط بعضنا مع بعض، وإنما هذه أشياء تكوّنت ونشأت وتبلورت لدى كل أمة مع تكون وتبلور وتطور التاريخ. فنحن نستطيع أن نقول: نحن اشتراكيون أو غير اشتراكيين، نحن ديمقراطيون أو غير ديمقراطيين، ولكننا لا نستطيع أن نقول نحن قوميون أو غير قوميين لأن القومية ليست فكرة أو فلسفة، بل هي وجود اجتماعي تاريخي.

والماركسية تقوم على أساس أن العوامل المادية هي الدافع الوحيد وراء كل ما في هذا الوجود، وتنكر أي عامل آخر، فهي نظرة جانبية جزئية، لأنها تعتمد على جانب واحد من جوانب الحياة الانسانية المتعددة. إن الحياة هي بواعث مادية وبواعث معنوية، وبواعث روحية، تترابط بعضها مع بعض وتؤثر بعضها في بعض، والأفكار الانسانية قد تُحدث ثورات وانقلابات كما تُحدث الحاجات المادية. والانسان قد يثور ويقاتل في سبيل فكرة كما يثور ويقاتل في سبيل حاجته المادية.

وهنا نقطة اختلاف هامة بين التفسير القومي للتاريخ وبين التفسير المادي للتاريخ.

والتفسير القومي يتميّز بأنه تفسير متكامل يربط بين جميع مظاهر الحياة الانسانية،

ويفسّر مظاهر الوجود الانساني بالعوامل المتعددة التي تكون وتؤثر في هذا الوجود. أما التفسير الماركسي فهو تفسير جزئي يقوم على عامل واحد وجانب واحد فقط. وفي التاريخ أمثلة عديدة على ثورات وأحداث وتفاعلات لا يمكن أن تفسر بالجانب المادي فقط.

إن في الانسان دوافع وبواعث معنوية كما فيه دوافع مادية، والنظرة التي تقول بأنها بواعث معنوية روحية فقط هي نظرة جزئية، والنظرة التي تقول بأنها دوافع مادية فقط هي أيضاً نظرة جزئية. وكلتاهما تبتعد عن الواقع، فواحدة تجعل الحياة تقترب من الصوفية الغيبية، والأخرى تجعل الحياة وعاء ناضباً يسير فيه الناس كآلات جامدة باردة، وتنكر كل الصفات والمفاهيم والعوامل التي دخلت على الانسانية في تاريخها الطويل، فأثّرت فيها، وتأثّرت بها.

وبعد، فكون الماركسية فلسفة (بما في هذه الفلسفة من أنظمة اقتصادية وسياسية) لا يمكن أن تتطور مع تطور أفكار الانسان ومفاهيمه وخبراته وتجاربه، إلا تطوراً يتناول بعض جوانب تفصيليات نظامها الاقتصادي أو السياسي بشكل محدود جداً. فإذا تطورت أكثر من ذلك، كأن يتناول التطور الأفكار الأساسية التي تقوم عليها وتفسر بها مختلف مظاهر الكون، فإنها لا تصبح ماركسية.

ولذا فإن الحتمية التي تقوم عليها الماركسية في كل تفاسيرها، تحتم أن يكون تطورها محدوداً جداً من جهة، ولا يتناول إلا تفصيليات أنظمتها من جهة ثانية، وأي تطوير أو تبديل في الأفكار الأساسية، يجعلنا نصل إلى شيء مختلف تماماً عن الذي وضعه ماركس. سنصل إلى فكرة جديدة.

أما القومية، فباعتبارها وجوداً انسانياً، وباعتبارها واقع حياة، ستمكّن أبداً من أن يطور الانسان كل أنظمته وكل أفكاره وفق اختياراته الجديدة.

فالقومية العربية وجود اجتماعي تاريخي، والماركسية فكرة أو فلسفة.

والوجود القومي العربي، يفترض ويستلزم أن نفسر كل مظاهر الحياة الانسانية تفسيراً تكاملياً يتناول أسبابها ومظاهرها المادية والمعنوية بشكل مترابط متكامل شامل، بينما الماركسية تستلزم تفسيرها بالجانب المادي فقط.

ولهذا تعمل الماركسية على محو القوميات في العالم، وانكار تاريخ المجتمعات وروابطها، لتذيبها في بوتقة واحدة كبيرة. وما سنصل إليه في هذه الحالة هو خليط متنافر يفتقر إلى التجانس الذي يؤدي إلى الاستقرار، ويفتقر إلى الانسجام الذي يوفر الجو الطبيعي الذي يمكّن الانسان من تفجير طاقاته ومواهبه. كما سنصل إلى حضارة انسانية ليس فيها أي تلوين وأصالة، بل هي عبارة عن اضافات جامدة ونسخ متماثلة من الانتاج.

وقد أثبت التاريخ حتى يومنا هذا، أن القومية وجود اجتماعي تاريخي عميق الجذور، لم تستطع الماركسية حتى في المناطق التي تعتمد عليها أن تمحوه، واضطرت إلى أن تعترف بالاشتراكية القومية.

٥ ـ القومية العربية والانسانية

إن كثيراً ممن يحملون على القومية العربية، وينادون بمحو القوميات وتخطّي حدود المجتمعات القومية نحو المجتمع العالمي الواحد، إنما لا يفهمون في غالب الأحيان القومية العربية بمحتواها وشكلها وأهدافها الصحيحة الواعية، ويختلط في أذهانهم مفهوم القومية، بمفهوم العنصرية والاستعلاء والعدوان والاستعمار تارة، والانعزالية والانكماش تارة أخرى، ولهذا يصلون إلى نتيجة خاطئة هي: أن هناك تعارضاً حتمياً بين القومية والانسانية. ولكن الخطأ ليس في القومية العربية، ولا في تركيب وطبيعة الوجود القومي، وإنما الخطأ في الروح التي تُفهم بها القومية، والمحتوى الذي نضعه لها، والأهداف التي نحددها بها. كما أن الخطأ أيضاً، في المعنى الذي تُفهم به الانسانية في كثير من الأحيان.

والقومية العربية كوجود اجتماعي تاريخي للأمة العربية، لا بد أن تُفهم ولا بد أن تستند إلى أسس انسانية عميقة، يتصل من خلالها الشعب العربي اتصالاً صحيحاً طبيعياً بالانسانية كلها، وينفعل انفعالاً صادقاً بآلامها وآمالها ومشاكلها وأهدافها، ويُترجم هذا الانفعال إلى عمل ايجابي ومواقف عملية.

وهذه الأسس القومية الانسانية تفترض أن نفهم القومية العربية على أنها:

ليست قومية عنصرية استعلائية عدوانية.
وليست قومية انعزالية منكمشة.
وأنها الطريق السليم للإنسانية السليمة.

القومية العربية ليست قومية عنصرية استعلائية عدوانية: لأن القومية العربية، حين تُفهم الفهم الصحيح الواعي، ويوضع لها المحتوى والأهداف الصحيحة الواعية، لا يمكن أن تحوّل إلى قومية تسود فيها النزعات العنصرية الاستعلائية، ولا يمكن أن تتحوّل إلى قومية عدوانية.

ويجب أن نفرّق دوماً، بين القومية كوجود اجتماعي تاريخي، كواقع يحيا حسبه البشر، والاتجاهات القومية التي تظهر لدى بعض فئات تلك القوميات، فظهور اتجاهات عنصرية استعلائية أو عدوانية، لا يعني أن القوميات تؤدي إلى العنصرية والاستعلائية والعدوان، وإنما يعني أن الاتجاهات التي ظهرت في تلك القوميات كانت اتجاهات استعلائية أو عدوانية.

وهذه الاتجاهات العنصرية الاستعلائية أو العدوانية ليست شيئاً حتمياً يرتبط ارتباطاً سلبياً بالوجود القومي، وليس هناك علاقة حتمية بين كون العالم يعيش في قوميات مختلفة، والاستعلاء أو الحروب والاستعمار، وإنما العلاقة تكمن في المفاهيم والآراء والأنظمة التي تسود في تلك القوميات، ولذلك فإننا نستطيع القضاء على هذه الاتجاهات بإزالة الأسباب التي تؤدي إليها وتولّدها. وقد كانت معظم هذه الأسباب ترجع إلى سببين رئيسيين:

السبب الأول: هو الروح والكيفية التي توجّه بها العاطفة القومية، والمفاهيم والآراء

التي يوجِّه حسبها الأفراد، فقد قامت الاتجاهات الاستعلائية العنصرية النازية في المانيا، على أساس العنصر النقي والدم الصافي والجنس الالماني الأرقى، وبررت لنفسها ـ بعد أن ضعفت الشعوب ـ استعمار العالم لإعطاء عبقرية العقل الالماني. وقامت الاتجاهات الاستعلائية الفاشية في ايطاليا على أساس مفهوم النخبة، وبررت لنفسها العدوان والاستعمار باسم النخبة الممتازة التي يجب أن تحكم الآخرين لإعطائهم معرفتها وثقافتها.

إن الفهم الصحيح للقومية العربية كوجود اجتماعي، لا بد أن يوصلنا حتماً إلى رفض الفكرة العنصرية والجنسية في تفسير القوميات، لأن أي وجود قومي إنما يقوم على تفاعل عوامل اللغة والتاريخ والثقافة والتقاليد والأهداف، وليس على تخيلات وهمية عن الدم والجنس، وإن الوحدة القومية هي هذه الوحدة الاجتماعية التاريخية العامة وليست الدموية العنصرية. فالاتجاه القومي النازي، قد ابتعد ابتعاداً كبيراً عن الفهم العلمي الصحيح للقوميات ونشوئها، وهو في الواقع اتجاه يمثل الاختلال في توازن القومية أكثر مما يمثل أي اتجاه قومي صحيح.

والفهم الصحيح للوجود القومي العربي، سيوصلنا كذلك حتماً إلى رفض الغرور والتعصب اللذين جاء بهما الاستعلاء الفاشي عندما جاء بمفهوم النخبة. إن مفهوم النخبة الذي اتجه إلى احتقار الفرد وانكار حقه في الحياة ما لم يكن من أفراد النخبة الممتازة، قد أدى بدوره إلى احتقار الآخرين وانكار حقهم في الحياة واستعبادهم، فهل ننتظر من هذا الاتجاه الذي لم يعط القيمة الحقيقية للانسان داخل نطاق المجتمع القومي، أن يعمل على اعطاء القيمة الحقيقية للإنسان خارج نطاق هذا المجتمع؟ وهل ننتظر من هذا الاتجاه الذي يخلق الاستعلاء خلقاً وينميه بين أفراد المجتمع الواحد وداخل نطاق المجتمع القومي الواحد، إلاّ أن يتصف بالاستعلاء ويبرره نحو القوميات الأخرى؟ إن الفهم الصحيح الواعي للوجود القومي العربي، سيوصلنا إلى أنه لا يمكن أن نتوصل إلى مفهوم الأمة الصحيح والوحدة القومية الحقيقية، إلا على أساس احترام الانسان وتقديسه واحترام حقه في الحياة، وإلاّ على أساس تحقيق المساواة بين أفراد الأمة الواحدة لا تصنيفهم إلى طبقات تعطي حق الحياة للبعض وتعتبر البعض الآخر كميات مهملة، وإلاّ على أساس تحقيق التوازن في العلاقة بين الفرد والمجتمع. هذا هو الفهم العربي الواعي لمعنى الأمة والوحدة الحقيقية، القائم على ازالة الاستعلاء نحو القوميات الأخرى.

وكذلك، فإن الفهم الواعي الانساني للوجود القومي العربي، الفهم الذي يقوم على المفاهيم والقيم الانسانية الحقة داخل نطاق المجتمع القومي، سيوصلنا حتماً إلى رفض فكرة الجنس الأرقى والشعب الأرقى والعقل الأرقى، وإدراك التجريح الكبير والانكار الكبير للمفاهيم والقيم الانسانية اللذين يتضمنهما هذا الاتجاه. وهل ننتظر من تلك المفاهيم التي تقوم على بث الغرور والاستعلاء القوميين في داخل نطاق المجتمع القومي أن نصل إلى فهم انساني حقيقي للقوميات الأخرى؟ وهل ننتظر من هذه الاتجاهات التي قامت على تصنيف

شعوب العالم كما تصنّف العائلات والرتب الحيوانية، إلاّ أن تتجه نحو استعمار هذه الشعوب والاعتداء عليها؟

ونخلص من ذلك إلى أن الاتجاهات القومية النازية والفاشية الاستعلائية العدوانية لم يتوفر فيها الفهم الصحيح الواعي في داخل مجتمعها الواحد، فلا يمكن أن ننتظر منها أن يتوفر فيها الفهم الواعي الانساني لإنسانية القوميات الأخرى. وأن الاتجاهات القومية الاستعلائية العدوانية لا تكمن في طبيعة وتركيب الوجود القومي، وإنما تكمن في المفاهيم والآراء التي تظهر أحياناً في هذا الوجود، وفي الفهم الخاطىء غير الواعي طبيعة ومستلزمات هذا الوجود. إنها تكمن في الروح التي نفهم بها القومية، والزاوية التي ننظر منها إلى معنى الأمة ومبرر وجودها. أي، أنها ترجع أولاً وأخيراً إلى نمو وتبلور الوعي القومي الانساني.

والسبب الثاني الذي أدّى إلى الربط بين القومية والعدوان والاستعمار، يكمن في طبيعة الأنظمة الاقتصادية والسياسية، ولا سيما الاقتصادية، التي تسود بعض المجتمعات القومية كما في بريطانيا وفرنسا وامريكا، والملابسات والظروف التي مرّت بها المجتمعات القومية. فالنظام الرأسمالي الذي تقيم عليه بعض المجتمعات اقتصادها، لا بد أن يؤدي إلى التضخم الرأسمالي والاحتكار ولا بد أن يؤدي إلى الاستعمار لتأمين الأسواق والمواد الخام. وهكذا تقترن فكرة الوجود القومي، وكون العالم يعيش في مجتمعات قومية بفكرة الاستعمار والعدوان.

ومن الواضح أن العلاقة ليست بين القومية كوجود اجتماعي تاريخي، وبين العدوان، وإنما بين الأنظمة الاقتصادية والسياسية التي يحتويها هذا الوجود القومي وبين العدوان. وهنا أيضاً هل ننتظر من المجتمعات التي لا تضع محتواها السياسي والاقتصادي بحيث يؤمن العدالة الاقتصادية والسياسية للأفراد في داخل نطاق المجتمع القومي الواحد، أن تعمل على تأمين العدالة للمجتمعات القومية الأخرى؟ وهل ننتظر من هذه المجتمعات التي يستغل فيها الأفراد بعضهم البعض، ويعيش بعضهم على حساب بعض داخل نطاق المجتمع القومي الواحد، إلاّ أن تتجه إلى استغلال القوميات الأخرى والعيش على حسابها؟

فالاستعمار والعدوان لا يكمنان أبداً في كون العالم يعيش في قوميات، بل يكمنان في الأنظمة الاقتصادية والسياسية التي تسود المجتمعات. وحين تسود هذه المجتمعات الأنظمة الاقتصادية والسياسية العادلة سيزول السبب الأول والأكبر وراء العدوان والاستعمار.

وأن الفهم الصحيح الواعي للوجود القومي العربي، الفهم الذي يقوم على أساس أن هذا الوجود لا يمكن أن تتجسد فيه القومية العربية تجسيداً تاماً متكاملاً إلاّ عندما يتجه نحو توفير الوحدة القومية داخل المجتمع القومي العربي بتطبيق الأنظمة الاقتصادية والسياسية التي تحقق انسانية مجموعه ومساواته ـ إن هذا الفهم القومي الواعي للقومية العربية، سيدفعنا حتماً إلى رفض الأنظمة الاقتصادية والسياسية التي قد تؤدي إلى الاستعمار والعدوان.

والقومية العربية ليست قومية انعزالية منكمشة!

فالقومية العربية كوجود اجتماعي تاريخي متميز للأمة العربية لا تعني أبداً وجوداً منفصلاً عن كل ما حوله، ومنكمشاً عن كل ما يبدو أمامه في المحيط الانساني الكبير. فالقومية العربية أسرة في المجموعة الانسانية لها تجاهها واجبات كما لها عليها حقوق.

والقومية العربية لم تكن في يوم من الأيام[44]، منعزلة عن الوجود الانساني، منكمشة عن المشاركة في أحداثه. فإن صحارى الجزيرة العربية ورمالها لم تحل دون انطلاق هذه المجموعة البشرية قبل آلاف السنين، ولم تحل دون الانطلاق قبل أربعة عشر قرناً لإعطاء الرسالة المحمدية، فقد كانت مجموعة حية متفاعلة، تعطي وتأخذ. ولعل مركز الوطن العربي على معابر الكرة الأرضية ومجاريها لا يمكّن أصلاً من الانعزال.

والفهم الصحيح الواعي للقومية العربية يوصلنا إلى أنها ليست وجوداً اجتماعياً جامداً بارداً، يسجن الأفراد في دائرة مغلقة من روابط اللغة والتاريخ والثقافة والتقاليد والأهداف، وإنما هي وجود حي متحرك متفاعل داخلياً وخارجياً، وجود حي متحرك داخلياً لأنه يقوم على تحقيق التوازن بينه وبين الأفراد، فلا يسحق الفرد باسم الدولة كما فعلت الفاشية والنازية، بل يعمل على إعطاء الأفراد القيمة الحقيقية، ليستطيع هؤلاء الأفراد أن يعودوا ويعطوا هذا الوجود القيمة الحقيقية، فيأخذ منهم ويعطيهم، ويكوّن من مجموع تجاربهم تجربته الكلية، ومن مجموع انتاجهم انتاجه الكلي، ومجموع امكاناتهم وطاقاتهم ومواهبهم حضارته. وهو بعد ذلك، وجود حي متحرك متفاعل خارجياً، لأنه لا ينكمش على هذه التجارب والنتاج والامكانات والمواهب، ولا يحصرها في جوانب المجتمع القومي العربي، ولا يسجنها داخل حدود الأراضي العربية، بل يجمعها ليعود فيطلقها داخل المجتمع القومي الواحد، ليبلور التجربة القومية، أكثر فأكثر، ويطلقها إلى المجتمعات الأخرى ليزيد التجربة الانسانية خصباً وشمولاً.

* * *

على أساس هذا الفهم للوجود القومي العربي، تتحدد الأسس والمفاهيم القومية العربية الانسانية.

على أساس أن الانسانية وعي وانفعال ومفاهيم وآراء، تنعكس داخل المجتمع القومي العربي لتحدد أنظمته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتطبع مختلف تفاعلاته، تحديداً عادلاً يحقق انسانية الأمة العربية، وتنعكس خارج حدود المجتمع القومي العربي، فتحدد مواقفه وعلاقاته مع العالم تحديداً يعمل على تحقيق انسانية العالم.

وعلى هذا الأساس أيضاً، نستطيع أن نتنبأ سلفاً في ما إذا كانت المجتمعات القومية ستسير نحو الانسانية أم لا، بمعرفة المفاهيم والآراء والأفكار والأنظمة والعلاقات التي تسود فيها.

---

(٤٤) إلاّ حين دخلت عصور الانحطاط والاستعمار والتجزئة.

ولهذا، فإن الوصول إلى الانسانية السليمة لا يمكن أن يحصل إلاّ بتحقيق انسانية المجتمع القومي، ففي نطاق هذا المجتمع القومي العربي الانساني، يفهم الانسان معنى الأمة ومبرر وجودها عن طريق ما يسود فيه من مفاهيم وأفكار وقيم انسانية، ويتعلم الانسان معنى العدالة والمساواة، عن طريق ما يسود فيه من أنظمة اشتراكية، وديمقراطية عادلة، وكل هذا، لا بد أن ينعكس في نفسه ويدفعه إلى أن ينشر هذه المفاهيم والأفكار والقيم خارج حدود مجتمعه، وأن يعمل على تحقيق العدالة والمساواة والحق في المجتمعات الأخرى، وهذه هي الانسانية.

فالانسانية، إذن، بمعناها السليم الواعي، لا تعني كلمة «العالم» فقط كما نستعملها كثيراً اليوم، بل تعني أول ما تعني الأفكار والمفاهيم والأنظمة الانسانية، وتعني النظرة إلى الحياة ـ بكل ما فيها ـ نظرة انسانية. «فالإنسانية» إذن أيضاً، ليست انفلاتاً طائشاً من حدود المجتمعات القومية نحو المجتمع العالمي الواحد، بل هي انفعال واحساس ومشاركة لا بد أن نلمسها في مجتمعنا لنصل إلى تجسيدها في العالم، وهي ليست اضافة مجتمعات بعضها إلى بعض، ومن الوهم أن نظن أننا نصل إلى الانسانية بدمج المجتمعات الموجودة اليوم في العالم، لأن ما نصل إليه في هذه الحالة هو «مجتمع عالمي» وليس «مجتمعاً انسانياً». وقد يبقى المجتمع العالمي مجتمعاً غير انساني.

ونخلص بذلك:

إلى أن الانسانية هي انفعال صادق واتصال عميق بآلام القوميات الأخرى ومشاركة واعية في مشاكلها وهي مسؤولية جديدة ومفاهيم عادلة، ونظرة في الحياة.

وهي بحد ذاتها تجربة كبيرة، لا نتوصل إليها بالوعظ والارشاد، أو بقراءتها في كتاب، أو بمحاولة دمج القوميات بعضها مع بعض. ولا بد أن نمارسها في واقعنا أولاً، وعن طريق ممارسة هذه التجربة ممارسة قومية أولاً، تتفتح نفوسنا تفتحاً طبيعياً أصيلاً جدياً على التجربة الانسانية ثانياً.

على أساس هذا المفهوم للانسانية، أي على أنها اتصال عميق بقيمة الانسان أينما كان عن طريق الاتصال بقيمة الانسان العربي، وعلى أساس أنها نظرة إلى الحياة لا بد أن تنعكس في الحياة القومية لتصل إلى الانسانية الشاملة، وعلى أساس أنها مشاركة ومسؤولية ومفاهيم، على هذا الأساس:

ليس هناك أي تعارض بين القومية والانسانية، بل على العكس هي الطريق السليم إلى الانسانية السليمة.

وعندئذ تصبح القومية العربية المنفصلة عن غيرها كشخصية جماعية متميزة، متصلة اتصالاً وثيقاً بغيرها، كتفاعل وعطاء.